

إِغَاثَةُ الْأَقْتَرِ بِكَشْفِ الْخَمْتِ

تأليف
فقيه الدين أحمد بن محمد بن علي القرظي

تحقيق وتعليق

الدكتور

جمال الدين الشيبان

أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر
مكتبة الثقافة الدينية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مَقَدِّمَةٌ

المقريزى عميدُ لا يدانيه أحد من المؤرخين فى مصر منذ العصور الوسطى حتى الآن ، وكتبه التى خلفها لا شك عيون بين الكتب التى أخرجت للناس فى التاريخ المصرى ، وهذه الكتب التى صرف المقريزى معظم حياته فى تأليفها ، وعزف عن وظائف الدولة من أجلها ، إما موسوعات ضافية كالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ؛ والسلوك لمعرفة دول الملوك ، أو رسائل صغيرة فى موضوعات معينة ، مثل كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وشذور العقود فى ذكر النقود ، وغيرها من النوعين كثير قيم ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، الذى تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر فى هذه الطبعة من النوع الثانى ، وهو من كتب المقريزى التى لم تنشر قبل الآن ، والتى لا يكاد يعرف عنها أحد شيئاً ، إلا المستشرقون وقليل من القوامين على التاريخ المصرى^(١) .

(١) استمدَّ المستشرق الفرنسى (Sauvaire) كثيراً من هذا الكتاب فى مؤلفه :
(Materiaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la
Métrologie Musulmanes) =

ويمتاز هذا الكتاب بطرافة موضوعه ، كما يدل على تفوق مؤلفه ، إذ يتناول تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ، وهي السنة التي أُلّف فيها^(١) . والمقريزى فى هذا الكتيب - فيما نعلم - هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرّض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر، فهو فى تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها، ويقترح العلاج الاقتصادى الصحيح لدرئها ودوائها. كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصرى فى عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته فى شئ من التفصيل.

والواقع أن المقريزى قد شابه بهذا الكتيب أستاذه ابن خلدون فى " المقدمة " ، فكلاهما كتّب فى صميم النواحي الاقتصادية الاجتماعية، ما عدأ أن كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " قاصر على مصر الإسلامية ، و" المقدمة" شاملة للعالم الإسلامى بوجه عام، بل إن أوجه الشبه بين الكتابين - والقياس مع الفارق فى الحجم - تتعدى هذا إلى طريقة العرض فى كل منهما، فكلا المؤرخين يبدأ كل فصل من فصول كتابه بمخاطبة القارئ والدعاء له، ثم يعرض لحقائق موضوع الفصل فى أسلوب علمى موجز، تغلب

= واختصره على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية (ج٧، ص ١٦ - ٢١) ، كما نقل منه شهاب الدين أحمد الحجازى كثيراً فى مؤلفه كتاب نيل الرائد فى النيل الزائد. انظر كشاف المخطوطات العربية بالمتحف البريطانى بلندن (B.M. Add. 23333)

(١) انظر ص ٤١ ، ٤٣ ، ٨٦

عليه الصبغة الفلسفية، وتخلله الاستشهادات التاريخية، ثم يختم الفصل
بآية أو آيتين من القرآن، أو بيت من الشعر يناسب المقام.

ويشير المقرئ في عباراته الافتتاحية إلى سبب تأليفه لهذا الكتاب،
وهو أن مجاعة متقطعة حدثت في زمنه من سنة ٧٩٦ هـ إلى ٨٠٨ هـ^(١) ،
فراًة أن يبين أن " ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم
عن النظر في مصالح العباد، لا أنه كما مرّ من الغلوات، وانقضى من السنوات
المهلكات " ^(٢).

ولقد ساعدته تجاربه الخاصة، التي اكتسبها أثناء توليته وظيفة
الحسبة بالقاهرة (٨٠١ هـ - ٨٠٢ هـ) ، على معالجة موضوعات الكتاب
في دقة العالم بخبايا الحياة الاقتصادية ، وربما كانت وفاة ابنته الوحيدة
(سنة ٨٠٦ هـ) في الطاعون الذي أعقب إحدى فترات تلك المجاعة الطويلة
من أسباب اهتمامه أيضاً .

هذا وقد ذكر المقرئ في حُرْدِ المتن (Colophon) أنه قد تيسر
له " ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة
ثمان^(٣) وثمانمائة " ، ولم يذكر صراحة أنه كتبها كتابة تلك الليلة،

(١) انظر ص ٣ - ٤ ، ٤١ - ٤٣ .

(٢) انظر ص ٤ .

(٣) انظر ص ٨٦ .

فراجع أن ذلك التاريخ منصبٌ على الترتيب والتهديب، وأن الكتابة نفسها قد استغرقت منه فترة سابقة.

ومهما يكن ، فالواضح من هذه العبارة أن المقریزی كان موفور النشاط، متحمساً لإنجاز ما بيده ، حتى ينصرف لغيره من أنواع الإنتاج العلمي.

ولكتاب " إغاثة الأمة " وأشباهه من الرسائل الصغرى ، للمقریزی وغيره من كبار المؤرخين وصغارهم فى مصر الإسلامية، أهمية خاصة تقصر عنها الكتب الكبرى لأولئك المؤرخين ، فبينما تموج مؤلفاتهم الضخمة بأخبار الخلفاء والسلطين والملوك والأمراء، وتؤود بحوادث العزل والولاية، وتتعش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو ترى إلا بمنظار، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على شئ من هوية مؤلفيها، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم فى مختلف العصور والعهود.

ذلك لأن الكاتب يعرض فى أمثال تلك الكتب لمسألة معينة، فيتحلل من قيود تسجيل الحوادث، ويجرؤ أحياناً على الإدلاء بآرائه فى نظم الحكم وقواعده ، بل يحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقلياً، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حراً.

ومما يزيد فى أهمية هذا الكتاب أيضاً أن أحد فصوله أصل لرسالة أخرى من رسالات المقریزی الصغيرة ، وهى " شذور العقود فى ذكر

النقود"، فقد كتبها لتكون فصلاً من فصول كتاب "إغاثة الأمة"، ثم جعلها بعد ذلك كتاباً بعنوان خاص^(١).

وسيلاحظ القارئ في ثنايا المتن هنا عرضاً لطيفاً للأساليب التي كان أرباب الحكم في مصر يطبقونها لتخفيف آلام المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى فى العصور الوسطى، وهى لا تختلف كثيراً عن وسائل الملوك والحكام فى التاريخ الأوروبى بإزاء الكوارث المماثلة فى نفس العصور: غير أنه مما يدعو إلى الغرابة أنه برغم تتابع المجاعات، وبرغم أن هذا الكتاب مفرد لتاريخها فى مصر، لم يذكر المقرئ سوى حادثتين^(٢) يمكن الاستدلال منهما على يقظة الشعب وثورته على ما كان هنالك من أسباب اقتصادية عددها المقرئ وأسهب فى شرحها^(٣).

والكتاب - إلى هذا كله - يتضمن إشارات علمية معقولة ذات أهمية للمشتغلين بكتابة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى، ومن تلك إرجاع الفتح الفاطمى لمصر إلى عامل اقتصادى^(٤) فوق العوامل الحربية المعروفة، ومنها أيضاً أن الخليفة الفاطمى كان يلقب أحياناً بـ "السلطان"^(٥)،

(١) المقرئ: شذور العقود فى ذكر النقود (ed. Tychemsen) ص ٥٠ .

(٢) انظر ص ١١، ٢٥ - ٢٦ .

(٣) انظر ص ٤٣ - ٤٧ .

(٤) انظر ص ١٣ .

(٥) انظر ص ٢٠ - ٢١، ٢٢ .

وأن لفظ " روزنامج " كان من مصطلح الدواوين الفاطمية بمعناه المعروف فى العهد العثمانى ^(١).

ولقد رجعنا فى نشر هذا الكتاب إلى ثلاث نسخ مخطوطة . وهى :
نسخة ضمن مجموعة من مؤلفات المقرئى الصغرى بمكتبة ولى الدين بجامع بايزيد بإستانبول (رقم ٣١٩٥) ، وتاريخ كتابتها سنة ١١٠١ هـ ، وقد جعلناها أصلاً للنشر لحسن خطها ووضوحه ، ورمزنا إليها بالحرف (و) فى الحواشى ، ونسخة دار الكتب المصرية ، وتوجد ضمن مجموعة رسائل لعدة من المؤلفين تحت (رقم ٧٧) مجاميع ، وتاريخ كتابتها غير مذكور ، وقد رمزنا إليها بالحرف (م) ، وهى رديئة الخط غامضة القراءة أحياناً ، غير أنها ممتازة عن النسخة السابقة بزيادات أدمجناها فى مواضع شتى بالمتن بين حاصرتين ، ونسخة مكتبة الجامعة بكامبردج بإنجلترا تحت رقم (2 - 746) ، وتاريخ كتابتها سنة ١١١٢ هـ ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ك) ، وهى أقل النسخ الثلاث قيمة من جميع الوجوه .

ويوجد عدداً هذه النسخ نسختان أخريان بإستانبول : إحداهما بمكتبة عاطف أفندى ، والثانية بمكتبة نور عثمانية ، كما توجد نسخة أخرى بالمكتبة الأهلية بباريس ، وقد ثبت لدينا بالمقابلة والمقارنة أن هذه كلها أقل قيمة من النسخ السابقة .

(١) انظر ص ٢١ .

والآن وقد وضحنا قيمة هذا الكتاب . وشرحنا طريقة نشره
إجمالاً، فقد حقَّ علينا الشكر لكل من عاون في إخراجه من ظلمات
المخطوطات إلى وضَح المطبوعات، وأولهم الأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة
التأليف والترجمة والنشر، إذ طالعه فقضى بأهميته وأحقيقته بالطبع، وتولَّى
تزكيته عند مجلس الإدارة للجنة التأليف، وأشرف على إنهائه بقراءة
صفحاته كلها متناً وحاشية قبل الطبع.

كذلك نسدَى الشكر إلى الدكتور هـ . رت (H.Ritter) المستشرق
المقيم بإستانبول، لمعاونته لنا في الحصول على صور شمسية من مختلف
النسخ الخطية، وإلى الأستاذ جاستون قيت (Gaston Wiet) مدير الآثار
العربية بالقاهرة لإرشادنا إلى بعض المراجع التي استعنا بها في حواشى هذا
الكتاب .

والله ولى التوفيق .

جمال الدين ملامح الشيبان

{ ٢٢ ذو الحجة ١٣٥٨ هـ }
مصر الجديدة
٣١ يناير ١٩٤٠ م

المقريزي

كتاب

إغاثة الأمة بكشف الغمّة

(١ ب) بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ وسلم . الحمد لله مصرف
الأمر بحكمته، ومجريها كيف يشاء بقدرته، أنعم على قوم فأوقفهم على
ما خفي من بديع صنعته، ووقفهم لا تباع ما درس من شريعته، وآتاهم بياناً
وحكماً، وألهمهم معارف وعلماً، وأيدهم في أقوالهم، وسددهم في أفعالهم،
حتى بينوا للناس أسباب ما نزل من المحن، وعرفهم كيف الخلاص مما حلّ
بهم من جليل الفتن، وأضلّ آخرين فأكثرُوا في الأرض الفساد، وأملى لهم
حتى أهلكوا بطغيانهم العباد والبلاد، واستدرجهم من حيث لا يشعرون،
فهم في ضلال يعمهون، وبباطلهم يفرحون، ولعباد الله يُذَلُّون، وعن عبادة
ربهم يستكبرون.

أحمدُه حمد عبدي عَرَفَ قدرَ أنعمِ الله عليه فعجز عن شكرها، وعلم أن
الأمر من الله ومرجعها إلى الله، فأعتمد عليه في تيسير عسرها.
وصلی اللہ علی نبینا محمد الذی ھدی اللہ به العباد، وأزال بشرعته
الجور والفساد، وعلی آله وأصحابه، وأولیائه وأحابه، صلاة لا ينقطع
مددها ولا يحصى عددها.

وبعد فإنه لما طال أمد^(١) هذا المبالء المبين، وحلّ فيه بالخلق أنواع العذاب المهين، ظنّ كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مرّ في زمن شبهها، وتجاوزوا الحدّ فقالوا لا يمكن زوالها، ولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها، وذلك أنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون، ومع العوائد واقفون، ومن روح الله آيسون. ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من^(٢) أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، (٢ أ) وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد، لا أنه كما مرّ من الغلوت^(٣)، وانقضى من السنوات^(٤) المهلكات، إلا أن ذلك يحتاج إلى إيضاح وبيان، ويقتضى إلى شرح وتبيان. فعزمت على ذكر الأسباب التي نشأ منها هذا الأمر الفظيع، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع، وأختم القول بذكر ما يزيل هذا الداء، ويرفع البلاء، مع الإلماع بطرف من أسعار هذا الزمن، وإيراد نبذ مما غبر من الغلاء والمحن،

(١) كذا في م (١٤ ب) فقط، وفي نسخة و التي اعتمدت أصلاً للنشر، وكذلك ك (١٩ ب) "أمر".

(٢) كذا في نسختي م (١٤ ب)، ك (١٩ ب)، أما نسخة و فنصها: "وعرف من أوله غايته"، وهو ركيك ناقص.

(٣) كذا في جميع النسخ، والصحيح "أغلية"، ومفرده "غلاء" بفتح الغين، أما "الغلوات" فمفردها "الغلوة"، ومعناها "المرّة والغاية"، ورمية السهم أبعد ما يقدر عليه، وتجمع أيضاً على "غلاء" بكسر الغين. (محيط المحيط).

(٤) كذا في نسختي م، ك، وفي "السنون"، وهو خطأ نحوي لعلّ منشؤه تهاون الناسخ.

راجياً من الله سبحانه أن يوفق من أسند إليه أمور عبادته، ومَلَّكهُ مقاليد أرضه
وبلاده، إلى ما فيه سداد الأمور، وصلاح الجمهور، [إذ الأمور^(١)] كلها -
[قلَّها^(٢)] وجلَّها - إذا عرفت أسبابها سهل على الخبير صلاحها، وبالله
المستعان على كل ما عزَّ وهو_____ان ، [وَهُوَ يَقُولُ الْحَقَّ وَيَهْدِي^(٣)]
إلى سِوَاءِ السَّبِيلِ [.

فصل

فِي تَذْكَرِ مَقْبِضَةِ التَّكْمِيَةِ التَّشْتَمِلِ عَلَى قَائِمَةِ كَلِمَةِ

—

أعلم أيَّدك الله بروح منه ، ووفَّقك إلى الفهم عنه ، أنه لم تزل الأمور
السالفة كلما كانت أصعبَ على من شاهدها، كانت أظرف عند [من^(٤)]
سمعها.

وكذلك لا تزال الحال المستقبلية تُتصَوَّرُ في الوهم خيراً من الحالة
الحاضرة، لأن مَلالة الحالة الحاضرة تزيِّن في الوهم الحالة المستقبلية،
فلذلك لا يزال الحاضر أبداً منقوصاً حقه مجحوداً قدره، لأن القليل من شره
يُرى كثيراً، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، وإن مقاساة
اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكُّر الكثير مما سلف منها. مثال ذلك

(١) (١ ، ٢) أضيف ما بين الحاصرتين من نسختي م ، ك ، حيث العبارة كالآتي :
" إذ الأمور قلَّها وجلَّها " .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من ك (٢٠) ، وهو غير موجود في نسختي و ، م .

(٤) ليس لما بين الحاصرتين وجود في و . ولكنه في م ، ك .

شخص أرقته البراغيث ليلة ، فتذكرَ بذلك لياى ماضية أرقته فيها حرارة الحمى، فغيرُ ذى شكٍ أن توهم تلك الحمى، وتذكرَ تلك الأيام الماضية، أخفَّ عليه من دبيب البراغيث على جسمه فى وقته ذلك. ولا جرم أن هذا الحال وإن كان هكذا موقعه فى (١) الوقت الحاضر من الحس، فليس كذلك حكمه فى الحقيقة، لأنه لا يقدر أحد أن يثبت القول بأن دبيب البراغيث على الجسم وقرصها أنكى من حرارة الحمى، وأن السهر فى حال الصحة أشد من السهر على (٢ ب) أسباب المنية.

ولما كانت الحالتان هكذا فى التمثيل، وجب علينا أن نسلم للقائلين الذين ضاقوا ذرعاً بحوادث زمنهم على مازعموه من أن هذه الحوادث صعبة عليهم، ولا نسلم [لهم (٢)] ما جاوزوا به الحد (٣)، من [أدعائهم (٤)] أنها فى المقارنة والقياس أصعب من التى مضت. مثاله [لو أن رجلاً قام من فراشه وهو بمصر فى بعض أيام الشتاء سحراً، وبرز (٥) إلى رحاب داره، فرأى الأمطار نازلة والأرض بالماء قد امتلأت، فقال هذا يوم شديد البر، لكان ذلك من قوله غير مردود ولا مُنكر، لأنه قال بما وجد فى نفسه، وبما جرت عادة الناس أن يقولوه. فإن عجز عن احتمال ما وصل إلى جسمه من البرد،

(١) كذا فى م فقط، وهو فى و، ك ' من ' .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م ، ك .

(٣) كذا فى م ، ك ، وهو فى و ' الحق ' .

(٤) ليس لما بين الحاصرتين وجود فى و، ولكنه فى م (١٥ أ)، ك (٢٠ ب) .

(٥) كذا فى م فقط، وفى ك ، و ' مر ' .

ورجع إلى فراشه فالتحفَ ، وقال هذا اليوم برده أشد من البرد الواقع بببلاد الروم والترك ، لم تَجْزُ هذه المقالة ، وُعِدُّ قائلها في الضعف واللين والغرارة^(١) بمنزلة بُنَيَاتِ الخدور وربّات الحجول ، بل نُخرجه عن لحافه^(٢) ، وُثْرِيه الأطفال وكيف يَمْرُون في تلك المياه ويلعبون بها ، فيعلم إذا رأى ذلك أن الذي أظنّب فيه من الشكاية لزمانه ليس لإفراط شدة الزمان ، لكنه لضعف صبره وقلة احتمالاه .

وسأذكر إن شاء الله تعالى من الغلوات^(٣) الماضية ما يتّضح به أنها كانت أشد وأصعب من هذه المحن التي^(٤) نزلت بالناس في هذا الزمان بأضعاف مضاعفة ، وإن كانت هذه المحنة مشاهدة وتلك خبراً .

وأعلم أن المسموع الماضي لا يكون أبداً موقعه من القلوب موقع الموجود الحاضر في شئ من الأشياء ، وإن كان الماضي كبيراً والحاضر صغيراً ، لأن القليل من المشاهدة أكثر من الكثير بالسمع .

﴿وَاللّٰهُ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩) . سورة البقرة الآية ٢٦٩ [وَاللّٰهُ يَقُولُ الْحَقُّ^(٥) وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] .

(١) الغرارة - بفتح الغين - التصابي بعد حنكة ، والغفلة . (محيط المحيط) .

(٢) في و " بل بخرجه من لحافه وزيه بالأطفال ٠٠٠ " ، والصيغة المثبتة هنا من م (١٥ ب) .

(٣) كـذا في جميع النسخ ، وسنحافظ على هذه الصيغة فيما يلي بغير تعليق . (أنظر ص ٢ ، حاشية ٢) .

(٤) في و " الذي " ، وهو كما بالمتن بالنسخ الأخرى .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد في ك فقط .

فصل

فى إيراد ما حل بمصر من الغلوات

وحكايات سيرة من أنباء تلك السنوات

أعلم حاط^(١) الله نعمتك وتولى عصمتك، أن الغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى عالم الكون والفساد، منذ (٣ أ) برأ الله الخليفة فى سائر الأقطار وجميع البلدان والأمصار. وقد دون نَقْلَه الأخبار ذلك وتَسَطَّوا خبره فى كتب التاريخ، وعزى إن شاء الله تعالى أن أفرد كتاباً يتضمن ما حل بهذا النوع الإنسانى من المحن والكوائن المجيحة، منذ آدم عليه السلام، وإلى هذا الزمن الحاضر، فإنى لم أرَ لأحد فى ذلك شيئاً مفرداً^(٢). وأذكرُ هنا جليل ما حلَّ بمصر خاصة من الغلاء فقط، على سبيل الاختصار، والإضراب عن التطويل والإكثار^(٣). فأقول وبالله أستعين فهو المعين، قد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف^(٤) شاه فى كتاب أخبار مصر لما قَبْلَ الإسلام، وهو كتاب

(١) كذا فى جميع النسخ وهو صحيح، ومعناه حفظ وصان وتعهده. (محيط المحيط).

(٢) فى و 'منفرداً' والصيغة المثبتة هنا من م (١٥ ب)، وهى أحسن.

(٣) فى و 'الكرار'.

(٤) يوجد قبالة هذا الاسم، بهامش الصفحة فى و فقط، العبارة التالية بخط المتن، ونصها 'لابراهيم بن وصيف شاه كتاب جليل كثير الفوائد فى أخبار مصر'، ونعل المقصود بذلك كتاب 'جواهر البحور ووقائع الأمور، وعجائب الدهور'، المنسوب إلى ابن وصيف شاه، وفيه ذكر فضائل مصر، وما ورد فى تاريخها =

جليل الفائدة رفيع القدر، أن أول غلاء وقع بمصر كان في زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان [وأسمه أفروس بن مناوش الذي كان طوفان^(١)] نوح عليه الصلاة والسلام في زمنه، على قول ابن هرجيب بن شهلوف^(٢). وكان سبب الغلاء ارتفاع الأمطار وقلة ماء النيل، فعقمت أرحام البهائم، ووقع الموت فيها لما أراده الله سبحانه وتعالى من هلاك العالم بالطوفان. ثم وقع غلاء في زمن فرعان بن مسور^(٣)، وهو التاسع من ملوك مصر قبل الطوفان، وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره

= القديم وآثارها من الأساطير، يتلوه تاريخ ولاتها من المسلمين منذ الفتح العربي. ومن هذا الكتاب نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية، مأخوذة من نسخة خطية بالمتحف البريطاني. هذا وقد اقتبس المقرئ كثيراً في كتابه المواعظ والاعتبار من ابن وصيف شاه، لكن الظاهر من تلك الاقتباسات أن المقرئ انتفع بكتاب أكبر من هذا الكتاب المشار إليه. (انظر فهرس دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ١٥٣، وأيضاً عنان: في مصر الإسلامية، ص ٤٢، حاشية ٤).

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٦ أ) ، وهو وارد في ك (٢٥ ب) أيضاً. ويوجد بالقلقشندی (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٢) إشارة إلى هذا الملك الفرعوني، وإلى أن عهده يوافق زمن الطوفان.

(٢) في م فقط (١٦ أ) ' شهلوق ' .

(٣) في م فقط (١٦ أ) ' مسود ' .

أحد، فأجدبت الأرض وفسدت الزروع، وجاء بعقب ذلك، فهلك الملك فرعان وهو سكران، وهو أول من سمي [باسم] فرعان^(١).

ثم وقع غلاء في زمن أتريب^(٢) بن مصريم، ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان: وكان سببه أن ماء النيل توقّف جريه مدة [مائة^(٣)] وأربعين سنة، فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها. وصار الملك أتريب مشياً، ثم أضعفه الجوع حتى لم يبق به حركة سوى أن يبسط كفيه ويقبضهما من الجوع. فلما اشتد الأمر عليه، وطال احتباس النيل، وشمل الموت أهل الإقليم، كتب أتريب إلى لادو^(٤) بن سام بن نوح عليه السلام بذلك، فكتب لادو إلى أخيه أرفخشذ بن سام فلم يجبه بشئ، حتى بعث الله هوداً عليه السلام (٣ب)، فكتب إليه أتريب يلتمس منه الدعاء برفع ما نزل بأرض مصر، فأجابه هو عليه السلام: إني أدعو لكم في يوم كذا، فانظروا فيه جرى النيل. فلما كان ذلك اليوم جمع أتريب من بقى بمصر من الرجال

(١) يوجد بهامش الصفحة في و فقط العبارة التالية ونصها: " أول من يسمى فرعان ". وفي القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٢) إشارة إلى هذا الملك أيضاً، وإلى أولويته في التسمية بهذا الاسم.

(٢) ينسب القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٨٥، ٤١٣)، والمقريزي (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٧٥) مدينة أتريب القديمة، وموضعها شرقي بنها الحالية بالوجة البحري، إلى هذا الفرعون.

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٦ أ)، ويوجد بهامش الصفحة في و العبارة التالية " عدم جريان النيل أربعين سنة ".

(٤) كذا في و، وهو في م، ك " لاوز".

والنساء وهم قليل عددهم، فدعوا الله تعالى وضحّوا واستغاثوا إليه، وكان ذلك عند انتصاف النهار فى يوم الجمعة. فأجرى الله سبحانه وتعالى النيل فى تلك الساعة، إلا أنه لم يكن عندهم ما يزرعونه. فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى هود عليه السلام أن أبعث إلى أتريب بمصر أن يأتى لحف جبلها، وليحفر بمكان كذا^(١)، فكتب هود إلى أتريب يعلمه، فجمع قومه وحفروا، فإذا عقود قد عقدت بالرصاص، وتحتها غلال كأنها وُضعت حينئذ، وهى باقية فى سنبها لم تدرس، فمكثوا ثمانية شهور فى ثقلها، وزرعوا منها وتقوّتوا نحو خمس سنين.

فأخبره أخوه صابر بن مصرم^(٢) أن أولاد قابيل بن آدم عليه السلام لما انتشروا فى الأرض وملكوها، علموا أن حادثة تحدث فى الرض، فبنوا هذا البناء ووضعوا فيه هذه الغلال. فزرعت مصر وأخصبت حتى بيع كل أردب بدانق^(٣)، ودام الرخاء مدة مائتى سنة.

ثم وقع الغلاء فى زمن الملك الثانى والثلاثين من ملوك مصر بعد الطوفان، و[هو] الثانى من ملوك العمالقة، وهو الثالث من الفراعنة فى

(١) يوجد بهامش الصفحة فى و فقط العبارة التالية : " غريبة جداً تذكر " .

(٢) كذا فى و ، وهو فى م (١٦ ب) " صا بن مصرم " .

(٣) الدايق لفظ قديم فى الفارسية القديمة والإرمينية أيضاً، واستعمله العرب فى الجاهلية للدلالة على وزن معين، وفى النقد أيضاً. ثم استعمل فى العصر الإسلامى كوزن ثقله عشر حبات من الشعير، أو أربعين من حبات الأرز، أو ثلاثة قراريط وثمان قيراط . (Enc . IsI . Art . Danik) .

قول مؤرخى القبط. واخْتُلِفَ فى أسم هذا الملك: فقتيل إن اسمه نهراوس، وقيل بل اسمه الريان بن الوليد بن درمغ العمليقى. وهذا الغلاء هو الذى دبر أمر البلاد فيه يوسف عليه السلام، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن العظيم، وتضمنته التوراة، واشتهر ذكره فى كتب الأمم الماضية والخالفة، فأغنى عن ذكره.

ثم وقع غلاء^(١) وجذبُ هلكت فيه الزروع والأشجار، وفقدت فيه الحبوب^(٢) والثمار، وعمّ الموت الحيوانات كلها، وذلك عند مبعث موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون. وخبر هذا الغلاء مشهور فى كتب الإسرائيليين وغيرهم، وكفى إشارة إليه ودلالة عليه قوله سبحانه وتعالى (٤٤) :

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ . سورة الأعراف ، الآية ١٣٧ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ سورة الأعراف ، الآية ١٣٠ .

(١) فى و " الغلاء والجذب" ، والصيغة المثبتة هنا من م (١٦ ب) ، وهى أصح لتسجام العبارة كلها.

(٢) فى و " الحيوانات" ، واللفظ المثبت هنا من م (١٦ ب) ، وهو المقصود لا تساقه مع لفظ " الثمار " التالى له ، وبدليل ورود لفظ " الحيوانات" فى آخر الجملة .

ثم وقع بالأرض قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أنواع^(١) من البلاء
والمحن عمت المعمور من الأرض، وخصّ مصر منها كثير من الغلاء، ذكرناه
في موضعه.

ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالإسلام، فكان أول غلاء وقع بمصر في
سنة سبع وثمانين من الهجرة، والأمير يومئذ بمصر عبد الله بن عبد^(٢) الملك
بن مروان، من قبل أبيه. فتشأء به الناس، لأنه أول غلاء، وأول شدة رآها
المسلمون بمصر.

ثم وقع غلاء في الدولة^(٣) الإخشيدية في محرم سنة ثمان وثلاثين
وثلاثمائة، من الهجرة، والأمير يومئذ أبو القاسم أو نوجور^(٤) بن
الإخشيد، فثارت^(٥) الرعية ومنعوه من صلاة العتمة^(٦) في الجامع العتيق.

(١) في و. ' من أنواع البلاء والمحن عمت المعمور . . . ' ، والصيغة المثبتة هنا
من م (١٦ أ) ، وهي أحسن وأصح .

(٢) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ١ ، ص ٢١٠ -
٢١٦) ، أن هذا الوالى هو الذى حول دواوين مصر من القبطية إلى العربية .

(٣) عبارة و كالاتى : ' ثم وقع الغلاء فى دولة الأخشيد ' ، والصيغة المثبتة هنا من م
(١٧ أ) ، وهى أكثر انسجاماً مع أسلوب المتن .

(٤) فى و ' كافور ' ، وهو خطأ ، والاسم المثبت هنا من م (١٧) ، والمعروف أن
حكم أنو جور امتد من ٣٣٤ هـ إلى ٣٤٩ هـ ، وأن حكم كافور بدأ سنة
٣٥٥ هـ . أنظر مثلاً (Lane - Poole : Cairo , Tables P. 317) .

(٥) فى و ' فمئنته ' ، والصيغة المثبتة هنا من م .

(٦) العتمة هنا الثلث الأول من الليل بعد غيبوبة الشفق ، أو وقت صلاة العشاء الآخرة
(محيط المحيط) .

ثم^(١) وقع غلاء فى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فكثرت الفار فى أعمال مصر، وأتلف الغلات والكروم وغيرها. ثم قصر النيل، فنزع^(٢) السعر فى شهر رمضان. وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. عظم [الغلاء^(٣)]، حتى بيع القمح كل وَيَبْقَيْن^(٤) ونصف دينار. ثم طُلب فلم يوجد، وثار الرعية وكسروا منبر الجامع بمصر.

[ثم^(٥) وقع الغلاء فى الدولة الإخشيدية أيضاً، واستمر تسع سنين متتالية، وابتدأ فى سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة، والأمير إذ ذاك على ابن^(٦) الإخشيد، وتدبير الأمور إلى الأستاذ أبى المسك كافور الإخشيدى . وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعاً وأربع أصابع، فنزع السعر بعد رخص، فما كان دينار واحد صار بثلاثة دنانير، وعز الخبز فلم يوجد، وزاد الغلاء حتى بلغ [القمح] كل ويبتين دينار.

(١) عبارة و هنا كالأتى : ' وفى سنة ٣٤١ هـ إحدى وأربعين وثلاثمائة كثر الفار . . . ، والنص المثبت بالمتن من م (١٧) .

(٢) معنى هذا الفعل هنا الجرى بسرعة، ومنه مثلاً نزع الفرس بمعنى جرى طلقاً من غير توقف . (محيط المحيط) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين لتكميل العبارة .

(٤) الويبة مكيال للحبوب ، سعته سدس الأردب .

(٥) ليس لما بين الحاصرتين وجود فى و ، لكنه وارد فى م (١٧)، وفى ك (٢٢) ب - ٢٣ أ .

(٦) تولى هذا الأمير الحكم فى مصر (٣٤٩هـ - ٣٥٥هـ، ٩٦٠م - ٩٦٦م) ، بعد أخيه أنوجور. أنظر تفصيل ذلك فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٣ ، ص ٣٢٥ ، وما بعدها) ، والكندى (كتاب الولاة ، ص ٢٩٦) .

وقصر مدّ النيل في سنة ثلاث وخمسين، فلم يبلغ سوى خمسة عشر ذراعاً و [أربعة^(١)] أصابع ، واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى حتى صار [في النصف^(٢)] من [شهر^(٣)] بابه إلى قريب من ثلاثة عشر ذراعاً، ثم زاد قليلاً وانحطّ سريعاً. فعظم الغلاء، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن، ونهبت الضياع والغلات. وماج الناس في مصر بسبب السعر، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب، فمات رجل وأمرأة في الزحام ، ولم تُصلّ الجمعة يومئذ . وتمادى الغلاء إلى سنة أربع وخمسين، وكان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعاً وأصابع. وفي^(٤) سنة أربع وخمسين [نفسها] كان مبلغ [الزيادة] ستة عشر ذراعاً وأصابع^(٥) . وفي سنة خمس وخمسين كان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعاً وأصابع (٤ ب) ، وقصر مدّه وقلّت جريته. وفي سنة ست وخمسين لم يبلغ النيل سوى اثني عشر ذراعاً وأصابع، ولم يقع مثل ذلك في الملة الإسلامية، وكان على إمارة مصر حينئذ الأستان كافور الإخشيدى، فعظم الأمر من شدة الغلاء .

ثم مات كافور ، فكثرت الاضطرابات وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت أسواق البلد،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من أبي المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٣، ص ٣٣٩) .

(٢) (٤، ٥) أضيف ما بين الحاصرتين من (١٧ أ) .

(٣) انفردت نسخة و فقط بالعبارة الواردة هنا بين الرقمين .

(٤) انفردت نسخة و فقط بالعبارة الواردة هنا بين الرقمين.

وأحرقت مواضع عديدة . فاشتدَّ خوف الناس ، وضاعت أموالهم وتغيّرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذّر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وبيبة بدينار . واختلف العسكر : فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طنج^(١) ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي^(٢) . وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجئ عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة . ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله ، وبنى القاهرة المعزية ، وكان مما نظر فيه أمر الأسعار ، فضرب جماعة من الطحانين وطُيف بهم . وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد ، وتقدّم ألا تُباع الغلات إلا هناك فقط ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة ، فكان^(٣) لا يخرج قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب ، واستمرّ الغلاء إلى سنة ستين فأشدّ فيها الوباء ، وفشت الأمراض ، وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات

(١) يوجد بهامش الصفحة في و ، قبالة هذا الأسم ، العبارة التالية : ' طنج يضم الطاء المهملة والغين المعجمة وبعدها جيم ' .

(٢) أضاف المقرئى بإيراد هذه الحقيقة هنا - وهو يصف الضنك السائد بمصر حين ذلك - سبباً اقتصادياً لنجاح الفتح الفاطمي لمصر ، وهذا عدداً الأسباب المعروفة المتواترة . أنظر مثلاً أبا المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٣ ، ٣٢٦ ، ج ٤ ، ص ٢٣ ، وما بعدها) . راجع أيضاً المقرئى (المواعظ والاعتبار - طبعة بولاق - ج ١ ، ص ٩٩) .

(٣) في و ' بمكان ' ، والرسم المثبت هنا من م (١٧ ب) .

ودفنهم، فكان من مات يطرح في النيل. فلما دخلت سنة إحدى وستين
انحلّ السعر فيها، وأخصبت الأرض، وحصل الرخاء.

ثم وقع الغلاء في أيام الحاكم بأمر الله وتدبير [أبي^(١) محمد] الحسن
بن عمّار، وذلك في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة هجرية، وكان سببه قصور
النيل، فإن الزيادة بلغت إلى ستة عشر ذراعاً وأصابع، فنزع السعر وطُلب
القمح (١١٨) فلم يُقدر عليه. واشتد خوف الناس، وأخذت النساء من
الطرق، وعظم الأمر وانتهى سعر الخبز إلى أربعة أرتال بدرهم، ومشت
الأحوال بانحطاط السعر بعد ذلك.

فلما كانت سنة خمس وتسعين (١٥ أ) وثلاثمائة توقف النيل حتى
كُسر الخليج في آخر مسرى، والماء على خمسة عشر ذراعاً وسبعة أصابع،
وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً وأصابع. فأرتفعت الأسعار، ووقفت
الأحوال في الصرف، فإن الدراهم المعاملة^(٢) كانت تسمى يومئذ بالدراهم

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٧ ب)، وكان هذا الرجل، حسبما ذكر أبو
المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٤، ص ١٢٢) أحد الوصيين
الذين عيّنتهما الخليفة العزيز، وهو على فراش الموت، للعاية بولده وخليفته
الحاكم الحاكم بأمر الله. وقد تلقب ابن عمار هذا بلقب أمين الدولة، فكان أول من
أستقام له هذا اللقب من المغاربة في الدولة الفاطمية.

(٢) المقصود بالدراهم المعاملة هنا ما كان منها مضروباً حسب قوانين الدولة القائمة،
مداولاً بين الناس بقيمته الرسمياً. انظر القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣، ص
٤٦٥ - ٤٦٨)، وكذلك (Dozy. Sup. Dict. Ar.) .

المزايدة^(١) والقطع ، فتعنت^(٢) الناس فيها وكان صرف الدينار ستة وعشرين^(٣) درهماً منها ، فتزايد سعر الدينار [إلى أن كان في سنة^(٤) سبع وتسعين كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار] . وارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس ، وكثر عندهم في الصرف ، وتوقفت الأحوال من أجل ذلك . فتقدم الأمر بإنزال عشرين صندوقاً من بيت المال^(٥) مملوءة دراهم فرقت في الصيارف ، ونودي في الناس بالمنع من المعاملة بالدرهم القطع والمزايدة ، وأن يحملوا ما بأيديهم منها إلى دار الضرب^(٦) ، وأجلوا ثلاثاً . فشق ذلك على

(١) في و " الزيادة " ، والرسم المثبت هنا من م (١٨ أ) ، وكذلك ك ، (١٢٤) ، ومما يلي هنا أيضاً (ص ١٥ ، سطر ٥) .

(٢) كذا في م (١١٨) فقط ، وفي و ، ك (١٢٤) ، " فتعنت " . انظر ما يلي بهذه الصفحة (سطر ٣) .

(٣) في و " عشرون " .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين من (١٨ أ) ، وهو في ك أيضاً (٢٤ ب) .

(٥) كان مقر بيت المال في مصر منذ الفتح العربي بالجامع العتيق ، وينسب بناؤه إلى قرّة بن شريك والى مصر (٩٠ هـ - ٩١ هـ ، ٧٠٩ م - ٧١٠ م) ، وإلى أسامة ابن زيد التنوخي أيضاً ، وهو صاحب الخراج في ولاية عبد الملك بن رفاعة على مصر (٩٣ هـ - ٩٨ هـ ، ٧١٢ م - ٧١٧ م) . انظر وصف بيت المال في ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص ١٦ ، الكندي، كتاب الولاية، ص ٧٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ٢٦٦ ، المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، ابن دقمان : الانتصار، ج ٤ ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وكذلك (Enc. Isl. Art. Masdjid) .

(٦) بنيت دار الضرب بالقاهرة في زمن الخليفة الأمر الفاطمي بجهة القشاشين قرب الجامع الأزهر ، وقد تولى بناءها الوزير المأمون بن البطاحي ، وسميت بالدار الآمرية . انظر: وصف هذه الدار وغيرها من دور الضرب بالإسكندرية وقوص وصور وعسقلان في القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ ، ج ٤ ، =

الناس لتلاف أموالهم، فإنه كان يدفع في الدرهم الواحد من الدراهم الجدد^(١) أربعة دراهم من الدراهم القطع والمزايدة^(٢). وأمر أن يكون الخبز كل أثنى عشر رطلاً من الدراهم الجدد، وأن يُصرف الدينار بثمانية عشر درهماً [منها^(٣)]. وضرِب عدة من الطحانين والخبازين بالسيوط^(٤)، وشهروا من أجل ازدحام الناس على الخبز، فكان لا يباع إلا مبلولاً. وقصر مدّ النيل حتى أنتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعاً وأصابع، فارتفعت الأسعار، وبرزت الأوامر لمسعود الصقلبي متولى الستر بالنظر في أمر الأسعار: فجمع خُزّان الغلال والطحانين والخبازين، وقبض [على] ما بالساحل من الغلال، وأمر أن لا تباع [إلا^(٥)] للطحانين، وسعر القمح كل

= ص ٤٦٥، الكندي: كتاب القضاة، ص ٥٩٦ - ٥٩٩، ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٢٥، المقرئ: كتاب الأوزان والأكيال الشرعية، ص ٤٧ - ٥٠، المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٠٦، ٤٤٥.

(١) يظهر أن هذا اللفظ كان يستعمل دائماً للدلالة على ما يستجد ضربه من النقود بأنواعها في عهد من العهود، تمييزاً لها في الغالب من النقود العتق. أنظر الفلقشندي: صبح الأعمشى، ج ٣، ص ٤٦٧.

(٢) في و ' الزيادة '، وهي كذلك في ك أيضاً (٢٤ أ).

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٨ أ).

(٤) كذا في و، وهو جمع سوط، على أنه غير وارد في محيط المحيط، حيث الجمع سياط وأسواط فقط.

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٨ ب).

تليس^(١) بدينار إلا قيراط، والشعير عشر وبيبات بدينار، والحطب عشر حملات بدينار، وسعر سائر الحبوب والمبيعات، وضرب جماعة بالسياط وشهرهم، فسكن الناس بوجود الخبز. ثم كثر ازدحامهم عليه، وتعذر في ذلك وجوده في العشايا^(٢)، فأمر أن لا يباع القمح إلا للطحانيين، وشدد في ذلك، وكبست عدة حواصل، وفرق ما فيها من القمح على الطحانيين بالسعر. واشتد الأمر، فبلغ الدقيق كل حملة بدينار ونصف، والخبز ستة أرطال بدرهم. وتوقف النيل عن الزيادة (هـ ب)، فأستسقى الناس مرتين، وارتفع السعر فبلغت الحملة الدقيق ستة دنانير. وكسر الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً، فاشتد الأمر، وبلغ القمح كل تليس أربعة دنانير، والأرز [كل] ويبة بدينار، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم، ولحم الضأن رطل بدرهم، والبصل عشرة أرطال بدرهم، والجبن ثمانى أواق بدرهم، وزيت الأكل ثمانى أواق بدرهم، وزيت الوقود رطل بدرهم.

وبلغت زيادة النيل في سنة ثمان وتسعين [أربعة عشر^(٣) ذراعاً وأصابع، فلحقت الناس من ذلك شدائد. وتمادى الحال إلى سنة تسع وتسعين]، فكسر الخليج في خامس عشر توت، والماء في خمسة عشر

(١) التليس - والتليمة أيضاً - كيس من الصوف أو الخوص، ذو سعة معينة.

. (Dozy . Supp. Dict. Ar.)

(٢) العشايا جمع عشى وعشية، ومعناه آخر النهار، أو من صلاة المغرب إلى العتمة. (محيط المحيط)

(٣) انفردت نسخة م (١٨ أ) بإيراد ما بين الحاصرتين .

ذراعاً، فنقص في تاسع عشر توت وانحط . فعظم الأمر، وكظ الناس الجوع، فاجتمعوا بين التصرين، واستغاثوا بالحاكم^(١) في أن ينظر لهم ، وسألوه أن لا يهمل أمرهم، فركب حماره وخرج من باب البحر ، ووقف وقال : " أنا ماض إلى جامع^(٢) راشدة، فأقسم بالله لئن عدتُ فوجدتُ في الطريق موضعاً يطؤه حماري مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لي إن عنده شيئاً منها، ولأخرقن داره وأنهبن ماله " . ثم توجه وتأخر إلى آخر النهار، فما بقي أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها في الطرقات، وبلغت أجرة الحمار في حمل النقلة الواحدة ديناراً. فامتأت عيون الناس، وشبعت نفوسهم . وأمر [الحاكم] بما يحتاج إليه كل يوم، ففرضه على أرباب الغلات بالنسيئة، وخيرهم في أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره بما فيه من الفائدة المحتملة لهم، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شئ منها إلى حين دخول الغلة الجديدة. فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره، وانحلّ السعر ، وارتفع الضرر، ولله عاقبة الأمور.

(١) في و ، ك (٢٤ ب) للحاكم .

(٢) بنى الخليفة الحاكم بأمر الله هذا الجامع سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) ، بجنوبى الفسطاط حيث نزلت قبيلة راشدة إبان الفتح العربى لمصر، وهذا أصل تسميته بذلك الاسم . انظر القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ ، المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٤ ، ص ١٧٧ .

ثم وقع غلاء في خلافة المستنصر^(١) ووزارة الوزير الناصر لدين الله أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري^(٢)، وسببه قصر النمل في سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وليس بالمخازن السلطانية شئ من الغلات، فأشتدت المسغبة. وكان سبب خلو المخازن أن الوزير (٦ أ) لما أضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات كان ينزل إلى الجامع بمصر في يومى السبت والثلاثاء من كل جمعة، فيجلس في الزيادة^(٣) منه للحكم على رسم من تقدمه، وإذا صلى العصر رجع إلى القاهرة.

[وكان] في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم، والأخباز بمصر في أزمنة المساغب متى بردت لم يُرَّجَع منها إلى شئ لكثرة ما يُعْشَّ^(٤) بها. وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز بها، ومحاذيها دكان آخر لصعلوك يبيع الخبز بها أيضاً، وسعره يومئذ أربعة أرتال بدرهم وثمان. فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد،

(١) في " المستعين " ، وليس بين خلفاء الفاطميين من تسمى بهذا الاسم، والصحيح كما بالمتن ، نقلًا عن م (١٨ب) .

(٢) بلغ هذا الوزير من سعة النفوذ وعظم الحظوة أن المستنصر سأله أن يقرن اسمه بأسمه على السكة، فكان ذلك لمدة شهر . انظر الكندي: كتاب القضاة : ص ٣١٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٣) الزيادة من المسجد ما يضاف إلى البناء الأصلي من جديد، ولجامع دمشق باب اسمه باب الزيادة ، وفي (Dozy. Supp. Dict. Ar) أن هذه اللفظ يستعمل بمعنى الباب نفسه.

(٤) في و " يعصى به " ، وفي م (١٩ أ) " يعثر به " ، وفي ك (١٢٥) " يغشى به " .

فأشفق من كساده، فنادى عليه أربعة أرتال بدرهم، ليرغب الناس فيه ،
فأنثال الناس عليه حتى بيع كلّه لتسامحه، وبقي خبز العريف كاسداً،
فحنق [العريف] لذلك ، ووكل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم.
فلما مرّ قاضى القضاة أبو محمد اليازورى إلى الجامع استغاث^(١) به، فأحضر
المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرجل. فذكر [المحتسب] أن العادة جارية
باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب البضائع، ويُقبل قولهم فيما
يذكرونه، فحضر عريف الخبازين بسوق كذا، واستدعى عونين من الحسبة،
[فوق الظن^(٢) أنه أنكر شيئاً اقتضى ذلك]. فأحضر [الوزير] الخباز
وأنكر عليه ما فعله ، وأمر بصرفه عن العرافة، ودفع إلى الصعلوك ثلاثين
رباعياً^(٣) من الذهب، فكاد عقله يختلط من الفرح. ثم عاد [الصعلوك] إلى
حانوته، فإذا عجنته قد خبزت، فنادى عليها خمسة أرتال بدرهم، فمال
الزبون إليه، وخاف من سواه من الخبازين برّد أخبارهم فباعوا كبيعة،
فنادى ستة أرتال بدرهم، فأدّتهم الضرورة إلى اتباعه. فلما رأى اتباعهم
[له] قصد نكاية العريف الأول وغيظة بما يرخص من سعر الخبز، فأقبل

(١) فى و . فاستغاث .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٩ ب) .

(٣) أشار المقرئى (شذور العقود ، ص ٢٤) إلى هذا النوع من النقد، فقال إن
الخليفة المأمون العباسى هو الذى استحدثه وسماه بذلك الاسم، وأنه ضرب منه
دراهم ودنانير.

يزيد رطلاً رطلاً ، والخبازون يتبعونه^(١) فى بيعه خوفاً من البوار ، حتى بلغ النداء عشرة أرطال بدرهم . وانتشر ذلك فى البلد جميعه . وتسامع الناس [به] ، فتسارعوا إليه . فلم يخرج قاضى القضاة من الجامع إلا والخبز (٦ ب) فى جميع البلد عشرة أرطال بدرهم . وكان يُبتاع للسلطان^(٢) فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجعل متجراً ، فلما رجع [اليازورى] إلى القاهرة وداره بها مثل بحضرة السلطان ، وعرفه ما من الله به [فى] يومه من إرخاص السعر وتوفر الناس على الدعاء [له] ، وأن الله جلّت قدرته فعل ذلك وحلّ أسعارهم بحسن نيّته فى عبّيده ورعيته ، وأن ذلك بغير موجب ولا فاعل له ، بل بلطفه تعالى واتّفاق غريب ، وأن المتجر الذى يقام بالغلة فيه مضرة على المسلمين ، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، فتتغير بالمخازن وتتلف ، وأنه يقيم متجراً لا كلفة على الناس فيه ، ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغير ولا انحطاط سعر ، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل ، وشبه ذلك . فأمضى السلطان له^(٣) مارآه ، واستمر ذلك ودام الرخاء [مدة سنتين] .

(١) فى و " يبيعونه " ، والرسم المثبت هنا من م (١٩ ب) .

(٢) يظهر من هذا أن الخليفة الفاطمى كان ينعى بالسلطان ، وهذا جديد يوجب الالتفات .

(٣) فى و " فامضى له ذلك " والصيغة المثبتة هنا من م (١٩ ب) ، وقد أضيف ما بين الحاصرتين ببقية الجملة من م أيضاً .

ثم قصر النيل بعد خمس سنين من نظره، فى سنة سبع وأربعين .
وليس فى المخازن إلا جرياتٌ من فى القصور ومطبخ السلطان وحواشيه لا
غير. فورد على الوزير أبى محمد ما كثر به فكره، ونزع السعر إلى ثمانية
دنانير التليس، واشتد الأمر على الناس، وصار الخبز طُرْفَةً . فدبر الوزير
البلد بما أمسك به رمق الناس: وهو أن التجار حين إعمار المعاملين^(١) .
وضيق الحال عليهم فى القيام للديوان بما يجب عليهم من الخراج، ومطالبة
الفلاحين بالقيام به ، صاروا^(٢) يبتاعون [منهم] غلاتهم قبل إدراكها بسعر
فيه ربح لهم، ثم يحضرون^(٣) ، [إلى] الديوان ويقومون للجهد^(٤) عنهم
بما عليهم، ويثبت ذلك فى روزنامج^(٥) الجهد مع مبلغ الغلة وما قاموا به،

(١) المقصود بلفظ " المعاملين" هنا عمال النواحي والجهات التابعة لنيوان الخراج،
وهذا المعنى واضح مما يلى (ص ٢٠ ، سطر ٦) . ويطلق لفظ المعاملين أيضاً
على الباعة ، كالباز والبقال والقصاب . (Dozy: Supp. Dict. Ar) ، والقلقشندى
(صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٦٦) .

(٢) فى و " صاروا " .

(٣) فى و " يحضروا ، ويقوموا " .

(٤) عرف ابن ممتى (قوانين الدواوين ، ص ٩) الجهد بأن " كاتب برسم
الاستخراج والقبض، وكتب (كذا) الوصولات، وعمل المخازيم والختمات وتواليها،
ويطالب بما يقتضيه تخريج ما يرفعه من الحساب اللازم له، لا الحاصل " . وهذا
اللفظ قديم الاستعمال فى مصطلح الدواوين الإسلامية، وقد أبدل بلفظ الصيرفى
بعند أيام الدولة الفاطمية. انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٦٦) .

(٥) الروزنامج لفظ فارسى معناه السجل اليومى، غير أنه مما يوجب الالتفات أن هذا
اللفظ كان مستعملاً فى مصر لهذا المعنى أيام الفاطميين ، أو على الأقل زمن
المقرئى، أى القرن التاسع الهجرى.

فإذا صارت الغلال فى البيادر^(١) حملها التجار إلى مخازنهم. فمَنع الوزير أبو محمد من ذلك، وكتب إلى عمال عامة النواحي بأستعراض روزنامجات الجهابذة، وتحرير ما قام به التجار عن المعاملين، ومبلغ الغلة الذى وقع الابتياح عليه، وأن يقوموا للتجار بما وزنوه للديوان، ويربحونهم فى كل دينار تُمن دينار تطيبياً لنفوسهم^(٢)، وأن يضعوا ختمهم على المخازن^(٣)، ويطالعوا^(٤) بمبلغ ما يَحْصُل (٧ أ) تحت أيديهم فيها. فلما حصل عنده علم ذلك جهّز المراكب، وحمل الغلال من النواحي إلى المخازن السلطانية بمصر، وقرّر ثمن التليس ثلاثة دنانير بعد أن كان بثمانية دنانير، وسلّم إلى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الأسواق، ووظّف ما يحتاج إليه البلدان القاهرة ومصر، وكان ألف تليس دوار^(٥) فى كل يوم، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلاثمائة. فقام بالتدبير أحسن^(٦) قيام مدة عشرين شهراً إلى أن أدركت غلة السنة الثانية، فتوسّع الناس بها،

(١) البيادر جمع بيدر، وهو المكان الذى تكوّم فيه الغلال بعد درسها. (محيط المحيط).

(٢) فى و "ويربحونهم فى كل دينارين دينار بطيبة انفسهم"، والصيغة المثبتة هنا من (٢٠ أ)، وهى أقرب إلى العقل والصحة.

(٣) فى و "المخابز"، والرسم المثبت هنا من م (٢٠ أ)، ك، (٢٦ ب).

(٤) فى و "يطالبوا"، والرسم المثبت هنا من م (٢٠ أ).

(٥) لم يستطع الناشر أن يجد تفسيراً لهذا اللفظ، فيما لديه من المراجع المتداولية بهذه الحواشى.

(٦) فى و "الحسن"، والرسم المثبت هنا من م (٢٠ أ).

وزال عنهم الغلاء، وما كادوا يتألمون لحسن التدبير. فلما قتل الوزير أبو محمد لم تَرَ الدولة صلاحاً، ولا استقام لها أمر، وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته ولا يُرضى تدبيره، وكثرت السعاية فيها، فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سُوقَهُمْ^(١)، ويوقعوا به الظن^(٢)، حتى ينصرف ولم تطل مدته. وخالط السلطان الناسُ، وداخلوه بكثرة المكاتبة، فكان لا ينكر على أحد مكاتبته، فتقدم منهم كل سفاسف، وحظى عنده عدة أوغاد، وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤساء والجلّة، وتنقلوا في المكاتبة إلى فنّ، حتى أنه كان يصل إلى السلطان في كل يوم ثمانمائة رقعة. فتشبهت عليه الأمور، وانتقضت الأحوال، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة، وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم، وأن الوزير منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يفيق من التحرّز ممن يسعى عليه عند السلطان، وتقف عليه الرجال^(٣)، فما يكون فيه فضل عن الدفاع عن نفسه. فخربت أعمال الدولة وقلّ ارتفاعها^(٤)، وتغلّب الرجال على معظمها، واستصفوا نواحي ارتفاعها، حتى انتهى ارتفاع الأرض^(٥)

(١) فى و 'سوفهم' ، وفى ك (٢٦ب) 'سرفهم' ، والرسم المثبت هنا من م (٢٠ب) .

(٢) فى و "ويوقعوا به الطير عليه" ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٠ب) .

(٣) يوجد بهامش الصفحة فى و الجملة التالية "اللهم عافنا" .

(٤) الارتفاع مبلغ ما يتحصل من المال لديوان من دواوين الدولة ، أو هو مجموع الأموال الديوانية كلها. (النويرى : نهاية الأرب، ج ٨ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ،

٢٩٧ ، المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ، ص ٥٢ ، ١١١) .

(٥) نعل المقصود بذلك "أسفل الأرض" ، أى الوجه البحرى الحالى .

السفلى إلى مالا نسبة له من ارتفاعها الأول، وكان قبل سنى هذه الفتنة ستمائة ألف دينار تحمل^(١) دفعتين فى غرة رجب وغرة محرم. فاتضع الارتفاع، وعظمت الواجبات، ووقع اصطلاح الأضداد على السلطان (٧ ب). وواصلوا اقتضاه قيوضهم فيوفيههم واجباتهم^(٢)، ولا زموا بابه، ومنعوه لذاته. وتجرءوا على الوزراء، واستخفوا بهم وجعلوهم غرضاً لسهامهم، فكانت^(٣) الفترات بعد صرف من ينصرف منهم أطول من مدة نظر أحدهم. فطغى الرجال، وتجرءوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة، فاستنفدوا أموال الخليفة، وأحلّوا منها خزائنه، وأحوجوه إلى بيع أعراضه، فأشترها الناس بالقيم العادلة. وكان الرجال يعترضون ما يبيع، فيأخذ من له درهم واحد ما يساوى عشرة دراهم، ولا يمكن مطالبته بالثمن. ثم زادوا فى الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض، فإذا حضر المقومون أخافوهم، فيقومون ما يساوى ألفاً بمائة وما دونها، ويعلم المستنصر وصاحب بيت المال بذلك، ولا يتمكنون من استيفاء الواجب عليهم. فتلاشت الأمور وأضحل الملك، وعلّموا أنه لم يبق ما يلتمس إخراجهم لهم، فتقاسموا الأعمال وأوقعوا التباسهم على ما زاد [عن] الارتفاع، وكانوا

(١) هذا اللفظ غير واضح فى و، بل يمكن قراءته ' كل '، والرسم المثبت هنا من

م (٢٠ ب) .

(٢) فى و، ك (٢٧ أ) " فيومهم بيومهم واحيانهم"، والرسم المثبت هنا من م

(٢٠ ب) .

(٣) فى و ' وكانت ' .

ينتقلون فيها بحكم^(١) غلبة من تغلب صاحبه عليها، ودام ذلك بينهم سنوات خمساً أو ستاً. ثم قصر النيل، فنزعت الأسعار نزوعاً بدد شملهم، وفرق إلفهم، وشنت كلمتهم، [وأوقع^(٢) الله العداوة والبغضاء بينهم] . فقتل بعضهم بعضاً حتى أباد خضراءهم وعفى آثارهم، فقتل بيوتهم خاوية بما ظلموا .

ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذى فخش أمره وشنع ذكره، وكان أمده^(٣) سبع سنين . وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتنة بين العربان، وقصور^(٤) النيل، وعدم من يزرع ما شمله الرى. وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعز، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل برأ وبحراً، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر^(٥). واستولى الجوع

(١) فى و ' حكم ' والرسم المثبت هنا من م (٢١) .

(٢) ما بين الحاصرتين من م (٢١) ، وكذلك ك (٢٧) .

(٣) فى و ' مدة ' ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢١) .

(٤) هذه الجملة وأشباهاها بالمتن مما يوجب الالتفات، فإرجاع الغلاء إلى الأسباب التى عددها المقرزى بهذا الوضوح ليس من المؤلف فى كتب المؤرخين فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب، وهذا مما يجعل للمقرزى مكانة خاصة بين المؤرخين، كما يجعل للرسائل الصغيرة مثل هذا الكتاب قيمة واضحة فى فهم تاريخ مصر فى العصر الوسيط.

(٥) الغرر التعرض للخطر، وركوب الغرر هو الإقدام على شئ مع التعرض للخطر (المحيط) .

لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاق
كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً (أ ٨) ، وأبيع الأردب من القمح [بثمانين
ديناراً^(١)] ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل
بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وتحرّز
الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها
كلاليب ، فإذا مرّ بهم أحد ألقوها عليه ونثلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه
وأكلوه. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب
[وأثاث^(٢)] وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ،
وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن "
الجوع ! الجوع ! " ، وتُردنّ المسير إلى العراق ، فتسقطن عند المصلّى ،
وتمتن جوعاً.

[واحتاج المستنصر حتى باع حلية^(٣) قبور آبائه] ، وجاءه الوزير
يوماً على بغلته فأكلتها العامة ، فشقق طائفة منهم ، فأجتمع عليهم الناس
فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت ، وكانت الشريفة بنت
صاحب السبيل^(٤) تبعث إليه فى كل [يوم^(٥)] بقعب من فتيت ، من جملة

(١) ما بين الحاصرتين من م (٢١ أ) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢١ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين من م (٢١ ب) .

(٤) ليس بين أسماء الوظائف الواردة فى باب الإدارة الحكومية زمن الفاطميين
بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٢، وما بعدها) وظيفة بهذا الاسم.

ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة، حتى أنفقت مالها كله، وكان
يجلّ عن الإحصاء فى سبيل البر. ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت
تبعث به إليه، وهو مرة واحدة فى اليوم واللييلة.

ومن غريب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته
ألف دينار، وعرضته على جماعة فى أن يعطوها به دقيقتاً، وكلُّ يعتذر إليها
ويدفعها عن نفسه إلى أن رحمها بعض الناس وباعها به تليس دقيقت بمصر.
وكانت تسكن بالقاهرة، فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهاية فى
الطريق، فلما وصلت إلى باب زويلة تسلّمت من الحماة له ومشت قليلاً،
فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهباً. فأخذت هى أيضاً مع الناس من الدقيق
ملاً يديها لم يئبها غيره، ثم عجنته وشوته، فلما صار قرصة أخذتها معها،
وتوصّلت إلى أحد أبواب القصر، ووقفت على مكان مرتفع، ورفعت القرصة
على يدها بحيث يراها الناس، ونادت بأعلى صوتها: "يا أهل القاهرة!
ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم"^(٥) بركات
حسن نظره حتى تقوّمت على هذه القرصة بألف دينار". (٨ ب) فلما اتّصل
به ذلك امتعض له، وقدح فيه وحرّك منه، وأحضر الوالى وتهدّده وتوعّده،
وأقسم له بالله جلت قدرته أنه إن لم يظهر الخبز فى الأسواق وينحلّ السعر
وإلا ضرب رقبتة وانتهب ماله.

(٥) = أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢١ ب) .

(١) فى و "عليها" .

فخرج من بين يديه ، وأخرج من الحبس قوماً وجب عليهم القتل .
وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدوّرة وطيالس سابلة^(١) ، وجمع تجار
الغلة والخبازين والطحانين، وعقد مجلساً عظيماً ، وأسر بإحضار واحد من
القوم، فدخل فى هيئة عظيمة، حتى إذا مثل بين يديه قال له : " ويلك !
ما كفأك أنك خنت السلطان، واستوليت على مال الديوان إلى أن أخرجت
الأعمال ومحقت الغلال، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟
أضرب رقبتك ! " ، [فضربت^(٢) فى الحال] . واستدعى آخر، فقام إليه
الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين، وقالوا : " أيها الأمير ! فى
بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج الغلة، وندير الطواحين، ونعمّر الأسواق
بالخبز، ونرخص الأسعار على الناس، ونبيع الخبز رطلاً بدرهم" . فقال :
" ما يقنع الناس^(٣) منكم بهذا " . فقالوا : " رطلين " ، فأجابهم بعد
الضراعة، ووفوا بالشرط. وتدارك الله الخلق وأجرى النيل، وسكنت الفتن،
وزرع الناس وتلاحق الخير، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة. وخبر هذه
الغلوات مشهور^(٤) .

(١) يفهم من سياق العبارة أن هذه الملابس كانت مما يميز التجار من غيرهم من
أصناف السكان بالقاهرة ، فى ذلك العهد .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى ك فقط (٢٨ ب) .

(٣) فى م (٢١ ب) " السلطان " .

(٤) فى و ' مشهورة ' .

وفى هذا القدر كفاية من التعريف^(١) بها ، وَاللَّهُ يَتَّبِعُ وَيَبْسُطُ
وَالْيَهُ تُرْجَعُونَ.

ثم وقع غلاء فى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله، ووزارة الأفضل ، بلغ
القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً ، فتقدم [الخليفة إلى]
القائد أبى عبد الله بن فاتك - الملقب بعد ذلك بالمأمون البطائحي - أن يدبر
الحال، فختم على مخازن الغلات، وأحضر أربابها وخيرهم فى أن تبقى
غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد، أو يفرج عنها^(٢) وتباع
(٩ أ) بثلاثين ديناراً^(٣). كل مائة أردب. فمن أجاب أفرج عنه، وباع
بالسعر المذكور، ومن لم يجب أبقي الختم على حواصله^(٤). وقدّر ما يحتاج
إليه الناس فى كل يوم من الغلة، وقدّر الغلال التى أجاب التجار إلى بيعها
بالسعر المعين، وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك بيع من غلات الديوان على
الطحانين بالسعر. فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت الغلة الجديدة،

(١) تعرف هذه النكبة فى الكتب العربية باسم " الشدة العظمى " ، وقد شبهها غير واحد
من المؤلفين بأيام القحط الذى ظل بمصر سبع سنوات متتالية زمن النبى يوسف
عليه السلام. انظر ابن إياس: بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ - ٦٢ ، المقريزى:
المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ ، عنان: فى مصر الإسلامية،
ص ٨٨ - ٩٠ ، زكى حسن: كنوز الفاطميين ، ص ١٤ - ١٦ ، وانظر أيضاً ما
ورد بهذه الكتب من المراجع التى تعرضت لوصف تلك الجائحة .

(٢) فى و " أو يفرج الله تعالى عنهم " ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٢ ب) .

(٣) فى و ' دينار ' .

(٤) فى و " أبقي الختم عليه " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٢ ب) .

فأنحلت الأسعار. واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس، فباعوها بالنزر اليسير، وندموا على ما فاتهم [من البيع ^(١)] بالسعر الأول .

ثم وقع غلاء شنيع وقحظ ذريع في أيام الحافظ لدين الله ، ووزارة الأفضل بن وحش^(٢) ، إلا أنه لم يستمر، فإن الأفضل المذكور [كان قد] ركب إلى الجامع العتيق بمصر، وأحضر كل من يتعلّق به ذكر الغلة، وأدّب جماعة من المحتكرين ومن يزيد في الأسعار، ووظّف عليهم القيام بما يحتاج إليه في كل يوم ، وياشر الأمر بنفسه وأخذ فيه بالحد، فلم يَسَح أحد خلافه. ولم يزل الحال كذلك إلى أن منّ الله تعالى بالرخاء، وكُشف عن الناس منازل بهم من البلاء، إنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

ثم وقع غلاء في أيام الفائز، بوزارة الصالح طلائع بن رُزَيْك، بلغ فيه الأردب خمسة دنانير، لتقصور ماء النيل^(٣) عن الوفاء. وكان بالأهراء^(٤) من

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٢ ب) .

(٢) كذا في و ، وهو في م (٢٢ب) وخشى ، وقد اختلفت المراجع المتداولة في هذه الحواشي في اسم هذا الوزير، فهو في الشيوطي (حسن المحاضرة، ج ٢ ، ص ١١٨) رضوان بن الوحشى ، وفي أبي المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة ج ٥ ، ص ٢٤١ ، ٢٨١) رضوان بن ولخشى ، وفي Précis De L'Histoire D'Egypte: T.II .P. 327 (رضوان فقط .

(٣) نسب أبو المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٥ ، ص ٣٣٩) هذا الغلاء إلى احتكار ابن زريك للغلال.

(٤) الأهراء هي الأماكن التي تخزن بها الغلال والأبواب الخاصة بالخليفة أو السلطان، احتياطاً لأمثال الطوارئ الاقتصادية الواردة بالمتن، وكانت لا تفتح إلا عند =

الغلات ما لا يحصى ، فأخرج جملة كثيرة^(١) من الغلال وفرقها على الطحانيين ، وأرخص سعرها ، ومنع [من] احتكارها ، وأمر الناس ببيع الموجود منها ، وتصدق على جماعة من المتجملين^(٢) والفقراء بجملة كثيرة. وتصدق سيف^(٣) الدين حسين وغيره من الأمراء وأرباب الجهات^(٤) بالقصر ما نفس عن الناس ، ولم يستمر [الحال] على ذلك سوى مدة يسيرة ، حتى فرج الله ، وهجم الرخاء ثم وقع الغلاء فى الدولة الأيوبية وسلطنة العادل أبى بكر بن أيوب ، فى سنة [ست و^(٥)] تسعين وخمسةائة : وكان سببه توقف النيل

= الضرورة. وهى غير الثون، فهذه يوضع بها ما يستهلك طول السنة من غلال وأحطاب وأتبان. (المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ، ص ٥٠٨ ، حاشية ١) .

(١) فى و "يسيرة" ، والرسم المثبت هنا من م (٢٢ب) ، وهو أقرب للمعقول.

(٢) المقصود بلفظ المتجملين هنا الفقراء الذين لا يظهرون المسكنة والذل على أنفسهم. (محيط المحيط)

(٣) كان هذا الأمير ابن أخى الوزير طلائع بن رزيك. أبو المحاسن (النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٥ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧) .

(٤) لعل المقصود بأرباب الجهات أهل اليمس والغنى (biens, richesses) ، نقلاً عن (Dozy : Supp. Dict. Ar) ، والجهات - ومفردهما جهة - الضرائب الديوانية أيضاً، كالجهة المفردة، وجهات ثغر دمياط. انظر المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ، ص ٣٧٣) ، والقلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٤) ، وكذلك:

. (Quatremère Histoire Des Sultans Mamlouks I.I.P.17. N.17)

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٣ أ) . أنظر المقريزى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ، ص ١٥٦ ، وما بعدها) ، وعبد اللطيف البغدادي (كتاب الإفادة والاعتبار ص ٦٢ ، وما بعدها) ، وابن إياس (بدائع الزهور، ج ١ ، ص ٧٦) ، حيث =

عن الزيادة وقصوره عن العادة، فانتهت الزيادة إلى اثني عشر ذراعاً وأصابع. فتكاثر مجئ الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع فهبَّ هواء أعقبه وباء وفناء. وعدم القوت حتى أكل (٩ب) الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً، والمرأة تأكل ولدها، فعوقب جماعة بسبب ذلك. ثم فشا الأمر وأعياء الحكام، فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذة أو شئ من لحمه، ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تنهياً، فإذا هي لحم طفل، وأكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت. ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرق مع الرجال والنساء مختفية، وغُرِّق^(١) في دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك. ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألقوه، وقل منعهم منه لعدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض. فلما كان آخر الربيع احترق ماء النيل في برمودة حتى صار المقياس في برّ مصر، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة، وتغير طعم الماء وريحه. ثم أخذ الماء في الزيادة قليلاً قليلاً إلى السادس عشر من مسرى، فزاد إصبعاً واحداً، ثم وقف أياماً، وأخذ في زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعاً وست عشرة إصبعاً، ثم انحط من يومه،

= توجد تفصيلات اضافية بصدد هذا الغلاء وما أعقبه في السنوات التالية من قحط ووباء.

(١) كذا في و ، ك (٢٩ ب) ، وهو في م (٢٣ أ) 'حرق' .

فلم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله. وكان أهل القرى قد فنوا، حتى أن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة، ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر فإنها فقدت، حتى بيع الرأس الواحد [من البقر] بسبعين ديناراً، والهزيل بستين ديناراً. وجافت الطرق كلها بمصر والقاهرة وسائر دروب النواحي بجميع الأقاليم من كثرة الموتان، وما زرع على قلته أكلته الدودة، ولم يمكن رده لعدم التقاوى والأبقار. واستمر أكل لحوم الأطفال، وعُدم الدجاج جملة، وكانت الأفران إنما يوقد فيها بأخشاب البيوت، وكانت جماعة من أهل الستر يخرجون في الليل ويتحطبون من المساكن الخالية، فإذا أصبحوا باعوها. وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل، وكان الرجل بالريف في أسفل مصر وأعلىها (١٠٠) يموت ويبيده المحراث، فيخرج آخر للحرث فيصيبه ما أصاب الأول. واستمرّ النيل ثلاث سنين متوالية لم يطلع منه إلا القليل، فبلغ الأردب من القمح إلى ثمانية دنانير. وأطلق العادل للفقراء شيئاً من الغلال. وقسم الفقراء على أرباب الأموال، وأخذ منهم اثني عشر ألف نفس، وجعلهم في مناخ^(١) القصر، وأفاض عليهم القوت، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء. وكان الواحد من أهل الفاقة إذا

(١) المناخ في الأصل المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية، (المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٠٦، حاشية ٥)، وهو هنا بمعنى مخزن الغلال، كالأمراء والنشون. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ١٩). انظر أيضاً ص ٢٨، حاشية ٤.

امتلاً بطنه بالطعام بعد طول^(١) الطوى سقط ميتاً، فيدفن منهم كل يوم العدة الوافرة، حتى أن العادل قام فى مدة يسيرة بموارة نحو^(٢) مائتى ألف وعشرين ألف ميت، فإن الناس كانوا يتساقطون فى الطرقات من انجوع، ولا يمضى يوم حتى يؤكل عدة من بنى آدم. وتعطلت الصنائع، وتلاشت الأحوال، وفنيت الأقوات والنفوس حتى قيل: سنة سبغ افترت أسباب الحياة. فلما أعات الله الخلق بالنيل لم يوجد أحد يحرث أو يزرع^(٣)، فخرج الأجناد بغلمانهم وثلوا ذلك بأنفسهم، ولم تزرع أكثر البلاد لعدم الفلاح. وهدمت الحيوانات جملة، فبيع فروج بدينارين ونصف، ومع ذلك كانت المخازن مملوءة غلالاً، والخبز متيسر الوجود يباع كل رطل بدرهم ونصف. وزعم كثير من أرباب الأموال أن هذت الغلاء كسنى يوسف عليه السلام، وطمع أن يشتري بما عنده من الأقوات أموال أهل مصر ونفوسهم، فأمسك الغلال وامتنع من بيعها. فلما وقع الرخاء ساست كلها ولم ينتفع بها [فرماها^(٤)]. وأصيب كثير ممن اقتنى المال من الغلال، فبعضهم مات عقب

(١) فى و ' حلول الطول ' ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٣ ب) ، وكذلك ك (١٣٠) .

(٢) فى و ' فى مدة يسيرة لموارة بعض من مات نحو مائتى ألف وعشرين ' ،
والعبارة المثبتة هنا من م (٢٣ ب) .

(٣) فى و ' يحرث ولا يزرع ' .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٤ أ) .

الآبار، ونضب ماء عين سلوان [بالقدس]^(١) . وكان مبلغ ماء النيل فى هذه السنة، أعنى سنة أربع وتسعين، ستة عشر ذراعاً وسبع عشرة أصبغاً، ونزل سريعاً، وكُسِر [بحر] أبى المنجا^(٢) قبل أوانه بثلاثة أيام خوفاً من النقص، فبلغ كل أردب من القمح إلى مائة درهم، والشعير إلى ستين، والفول إلى خمسين، واللحم إلى ثلاثة دراهم الرطل . فأخرجت الغلال من الأهرام، وفُرِّقت فى المخابز والجرايات لكل صاحب جراية ست جرايات فى شهرين . وكان راتب البيوت والجرايات لأرباب الرواتب فى كل يوم خمسين وستمائة^(٣) أردب، ما بين قمح وشعير، وراتب الحوائج^(٤) خاناه عشرين

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٤ أ) ، وتقع عين سلوان بواى جهنم (Valley of Kedron) بالقدس جنوبى دائرة الحرم (Haram Area) ، وربما خصها المقرزى بهذه الإشارة لكونها عينا مباركة بالقدس، أو لأنها كانت تسمى أراضى موقوفة على الفقراء . انظر (Le Strange. Palest. Under Moslems, pp 74, 162, 179, 212, 223) .

(٢) حفرت هذه الترع فى العهد الفاطمى لرى بعض أراضى الجنوب الشرقى للبلد بماء النيل، وكان المكلف بالقيام على حفرها أبو المنجا شعيا اليهودى فعرفت بأسمه، وكان ميعاد كسرها من أعياد فيض النيل بالقاهرة، زمن الفاطميين والأيوبيين . (المقرزى: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٧١، ٤٨٧، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٣) كذا فى و ، ك (٣٠ ب) ، وهو فى م (٢٣ ب) " سبعماية" .

(٤) الحوائج خاناه لفظ مركب من كلمتين: حوائج وهى عربية، وخاناه وهى فارسية، ومعناها معاً فى مصطلح الدولة المملوكية بمصر بيت الحوائج واللوازم التابع لسلطان أو أمير . انظر المقرزى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٥٩، حاشية ٤) .

ألف رطل لحم فى اليوم . وكان قد ظهر الخلل فى الدولة لقلّة المال وكثرة النفقات، فتعدّدت المصادرات للولاء والمباشرين، وطُرِحَت البضائع بأعلى الأثمان على التجار.

ودخلت سنة خمس وتسعين وبالناس شدة من الغلاء وقلّة الواصل . إلا أنهم يمتّون أنفسهم بمجئ الغلال الجديدة، وكان قد قرب أوانها. فعند إدراك الغلال هبّت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوباً عاصفاً، وحملت تراباً أصفر كسا زروع تلك البلاد، فهافت كلها ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل، ففسدت بأجمعها. وعمّت تلك الريح^(١) والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية، ومرّت إلى الصعيد الأعلى، فهافت الزرع. وفسد الصيفى من الزرع، كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر، وسائر ما يزرع على السواقي، فتزايدت الأسعار . وأعقبت تلك الريح أمراض وحميات عمّت سائر الناس، فنزع سعر السكر والعسل وما يحتاج إليه المرضى، (١١أ) وهدمت الفواكة، وأبيع الفروج بثلاثين درهماً ، والبطيخة بأربعين ، والرطل من البطيخ بدرهم ، والسفرجل ثلاث حبات بدرهم ، [والبيض^(٢) كل ثلاث حبات بدرهم] . وتزايد القمح إلى مائة وتسعين الأردب. والشعير إلى مائة وعشرين، والفول والعدس إلى مائة وعشرة دراهم الأردب. وأقحطت بلاد القدس والساحل ومدن الشام إلى حلب، فبلغت الغرارة القمح إلى مائتى

(١) فى و ' الزروع ' ، وهو خطأ واضح، واللفظ المثبت هنا من م (٢٤ ب) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٤ ب) .

درهم وعشرين، والشعير بالنصف من ذلك، واللحم الرطل إلى عشرة دراهم، والفاكهة إلى أربعة أمثالها. وكان ببلاد الكرك والشوبك وبلاد الساحل لما يرصد للمهمات والبواكر^(١) ما ينيف عن عشرين ألف غرارة، فحملت إلى الإمبراطور. وأقحطت مكة، فبلغ الأردب القمح بها إلى تسعمائة درهم، والشعير إلى سبعمائة، فرحل أهلها حتى لم يبق بها إلا اليسير من الناس. ونزحت^(٢) سكان قرى الحجاز. وعدم القوت ببلاد اليمن وأشدت [بها] الوباء، فباعوا أولادهم في شراء القوت، وفروا إلى نحو حلى^(٣) بنى يعقوب، فالتقوا بأهل مكة وضائق بهم البلاد، ففنوا كلهم بالجوع إلا ضائفة قليلة. وقحطت بلاد الشرق، وهدمت دوابهم وهلكت مراعيهم، وأمسك القطر عنهم. واشتد الأمر بمصر، وكثر الناس بها من أهل الآفاق، فعظم الجوع، وانتهت الخبز من الأفران والحوانيت، حتى كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتبه الناس فلا يحمل إلى الفرن، ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة

(١) البواكر جمع بيكار، وهو لفظ فارسي معرب، وقد جرى في مصطلح الدولة المملوكية بمصر للدلالة على الحملات الحربية والحرب عامة. انظر المقرئ (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ١٠٥، حاشية ١، ص ٥٣٦، ٦١٦).

(٢) في و "نزعت"، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٥ أ)، وكذلك ك (٣١ أ).

(٣) في و "حلل"، وكذلك في ك (٣١ ب)، وفي م (٢٥ أ) "جلى"، والرسم المثبت هنا من ياقوت (معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٧)، حيث وردت "حلى" فقط، وأنها بلد باليمن على ساحل البحر.

يحمونه^(١) بالعصى من النُهابة. فكان من الناس من يُلقى نفسه على الخبز ليخطف منه، ولا يبالي بما ينال رأسه وبدنه من الضرب، لشدة ما نزل من الجوع.

فلما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء ونوى الحاجات، وفرّقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة [فقير^(٢)] وإلى أمير الخمسين خمسين، حتى كان لأمير العشرة عشرة. فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً في مرقة الخبز، يمدّه لهم سماطاً يأكلون جميعاً، وفيهم من يعطى فقراءه رغيفاً رغيفاً، وبعضهم كان يفرّق الكعك، وبعضهم يعطى رقائقاً، فحَفَّ ما بالناس من الفقر. وعظم الوباء في الأرياف والقرى، وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر، وعظم الموتان (١١ب)، وطلبت الأدوية للمرضى، فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة في شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم، وبيع من دكان يعرف بالشريف عَطوف من سوق السيوفيين بمثل ذلك، وكذلك حانوت بالوزيرية، [وآخر خارج^(٣)] باب زويلة - بيع في كل واحد منها بنحو من مثل ذلك. وطلب الأطباء، وبُذلت لهم الأموال، وكثر تحصيلهم، فكان كسب الواحد منهم في اليوم مائة درهم، ثم أعيأ الناس كثرة الموت، فبلغت عدة من يرد اسمه الديوان

(١) في و " يحملونه " ، والرسم المثبت هنا من م (١٢٥) .

(٢) ليس لما بين الحاصرتين وجود في و ، ولكنه في م (١٢٥) .

(٣) ليس لما بين الحاصرتين وجود في و ، ولكنه في م (١٢٥) ، وفي ك (٣١ ب) .

السلطاني في اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف^(١) نفس ، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى. وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصاً الأطفال، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمي ، ويُمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذ أو شئ من لحمه. وخلت الضياع من أهلها، حتى إن القرية التي كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين، وكان أكثرهم يوجد ميتاً في مزارع الفول لا يزال يأكل منه إذا وجدته حتى يموت، ولا يستطيع الحراس ردّهم لكثرتهم.

ومع ذلك زَكَتَ^(٢) الغلال في الكيل أضعاف المفهوم^(٣) : ولقد كان للأمير فخر الدين الطنبغا المساحي من جملة زرع مائة فدان فولاً لم يمنع أحداً من الأكل منها في موضع الزرع، ولم يمكّن أحداً أن يحمل منه شيئاً. فلما كان أوان الدراس لم يَرُضَ بمن وكل إليه أمر الزرع حتى خرج بنفسه، ووقف على أجران تلك المائة فدان الفول، فإذا تل عظيم من القشر الذي أكل الفقراء فوله أخضر، فطاف به وفتّشه فلم يجد به شيئاً من الفول، فأمر به عند انقضاء شغله أن يدرس لينتفع بتبينه، فحصل منه سبعمائة وستون أردباً.

(١) في م (٢٥ ب) فقط "ثلثمائة".

(٢) (٣،٢) في و "فزكت"، وفي ك (١٣٢) أيضاً، ولا وجود لهذه الجملة المحدودة

بالرقمين في م (٢٥ ب) .

فَعُدَّ ذلِكَ من بركة الصدقة وفائدة أعمال البر ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

وكثرت أرباح التجار والباعة، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من
الباعة يستفيد فى اليوم المائة والمائتين، ويصيب الأقلُّ من السوقة [ربحاً]
فى اليوم ثلاثين درهماً. وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع، واكتفوا بذلك
طول (١٢) الغلاء. وأصيب جماعة كثيرة ممن ربح فى الغلال - من الأمراء
والجند وغيرهم - فى مدة الغلاء، إما فى نفسه بأفة من الآفات، أو بإتلاف
ماله التلاف الشنيع، حتى لم ينتفع. فلقد كان لبعضهم ستمائة أردب باعها
بسعر مائة وخمسين الأردب وبأزيد من ذلك، فلما ارتفع السعر عما باع به
ندم على بيعه الأول حيث لم ينفعه الندم، فلما صار إليه ثمن الغلال أنفق
معظمه فى عمارة دار، وزخرفها وبالغ فى تحصينها وإجادتها، حتى إذا
فرغت وظنَّ أنه قادر عليها أتاها أمر ربها فأحترقت بأجمعها، وأصبحت لا
ينتفع بها بشئ.

وحصلت الفتنة بين السلطان والأمراء ، وتوقفت أحوال^(١) الوزير
[فخر الدين^(٢) بن الخليلي] ، وازداد ظلم أتباع السلطان ومماليكه،

(١) فى و ' الأحوال ' ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٦ أ) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين مما يلى بهذه الصفحة (سطر ١٣) ، وقد تقلد هذا

الوزير منصب الوزارة مرات حتى أوائل الحكم الثالث للسلطان الناصر محمد بن
قلاوون. المقرئى (كتاب السلوك لمعرفة نول الملوك، ج ١، ص ٨٠٨، ٨١٦،

٨٣٦) ، وكذلك (Zetterstéen Beitrage. Pp. 33, 37, 40, 43, 145, 153) .

[وتكاثر^(١) جورهم] ، وعظم طمعهم فى أخذ البراطيل والحمايات^(٢) ، وكثر عسفهم وغصبهم من الأمراء. ولعبت الناس فى الفلوس لما ضربت، فنودى أن يستقرّ الرطل منها بدرهين، ووزنة الفلوس درهم، هذا أهل ما عُرف من وزن الفلوس واشتدّ ظلم الوزير- وهو صاحب فخر الدين [بن] الخليلي - لتوقف أحوال الدولة من كثرة الكلف، فأرصد متحصل المواريث^(٣) للغداء والعشاء ، وأخذ الأموال الموروثة ولو كان الوارث ولداً أو غيره: فإذا طالبه الولد بميراث أبيه، أو الوارث بما انجرّ إليه من الإرث، كلفه إلى إثبات نسبة أو

(١) ليس لما بين الحاصرتين وجود فى و ، ولكنه فى م (١٢٦) ، وفى ك (٣٢٢) .

(٢) عرف المقرئى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ١١١) فى باب أقسام مال مصر، هذين النوعين من الضرائب، وأتى على تاريخهما فى عبارة واضحة مختصرة، ونصها (ص ١١١) : "وأما البراطيل، وهى الأموال التى تؤخذ من ولاية البلاد ومحتسبها وقضاتها وعمالها، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى ولاية النواحي فقط، ثم بطل وعمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين [الأيوبي] أحياناً، وعمله الأمير شيخون فى الولاية فقط، ثم أفحش فيه الظاهر برفوق وأما الحمايات والمستأجرات فشئ حدث فى أيام الناصر فرج [بن برفوق]، وصار لذلك ديوان ومباشرون، وعمل مثل ذلك الأمراء ، وهو من أعظم أسباب الخراب"

(٣) المقصود بالمواريث هنا المال المتحصل من المواريث الحشرية، وقد شرح المقرئى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ١١١) أصله وطرق تحصيله فى عصره بالآتى: "وأما المواريث، فإنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى لليوم، من أجل أن مذهبهم يورث نوى الأرحام، وأن البنات إذا انفردت استحققت المان بأجمعه. فلما انقضت أيامهم، واستولت الدولة الأيوبية، ثم الدولة التركية، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، وهى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث، فتعدل فيه الوزارة مرة ، وتظلم أخرى" .

استحقاقه، فلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة، فإذا تمَّ الإثبات أحاله على المواريث، حتى إذا مات آخر وله مال ووارث من ولد ذكر أو غيره فعل معهم كذلك، فتعجز الورثة من الطلب، فتترك [المطالبة^(١)] .

واشتدَّ الأمر على التجار لرمى البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيَم. وكثرت المصادرات فى الولاية وأرباب الأموال، وعظم الجور على أهل النواحي، وخُملت التقاوى السلطانية من الضياع. واشتدَّ الأمر على أهل دمشق ونابلس وبعلبك والبقاع وغيرها، وكانت أيام فى غاية الشدة من الغلاء وكثرة الأمراض [والموت^(٢)] وعموم الظلم.

ووقع بآخر هذا الغلاء أعجوبة فى غاية الغرابة لم يسمع بمثلها: وهى أن رجلاً من أهل الفلح بجبة عسال - إحدى قرى دمشق الشام - خرج بثور^(٣) (١٢ب) له ليَرِد الماء، فإذا عدة^(٤) من الفلاحين قد وردوا^(٥) الماء، فأورد الثور حتى [إذا] اكتفى نطق بلسان فصيح أسمع من بالورد، [و] قال: "الحمد لله والشكر له. إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين مجدبة، فشفع لهم النبى صلى الله عليه وسلم، وإن الرسول أمره أن يبلغ

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٢٦) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٢٦) .

(٣) فى و " ثور " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٦ ب) .

(٤) قبالة هذه العبارة، بهامش الصفحة فى و، الجملة الآتية بخط المتن " أعجوبة لم تسمع مثلها " .

(٥) فى و " فوردوا " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٦ ب) .

ذلك، وأنه قال يا رسول الله فما علامة صدقي عندهم ، قال : أن تموت بعد تبليغ الرسالة” ، وأنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات. فتسامع به أهل القرية، وجاءوا من كل حدب ينسلون، فأخذوا شعره وعظامه للتبرك، فكانوا إذا بخرروا به موعوكاً برئ. وعُمل بذلك محضر مثبت على قاضي البلد، وحُمل إلى السلطان بمصر، فوقف عليه الأمراء ، واشتهر بين الناس خبره وشاع^(١) ذكره .

وعقب ذلك انحلت الأسعار، وجاء الله بالفرج، ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . سورة الجاثية الآية (٥).

وفي أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة وقع الغلاء بالديار المصرية ، في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعزّ القمح ووصل كل أردب إلى سبعين درهماً ، والفول إلى خمسين ، والخبز كل خمسة أرتال بدرهم ، ولا يكاد يوجد. وعدم القمح من الأسواق، صار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس، وصار الخبز كالكسب من السواد، فرتّب الوالي على

(١) توجد هذه القصة بحذافيرها في المقرئى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ،

كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق^(١) لدفع الناس عن حوانيت الخبز
لئلا ينهب.

فضج^(٢) الناس للسلطان واستغاثوا، فجمع الأمراء وقال لهم :
" يا أمراء ! وشهر عليكم، وشهر علىّ، وشهر على الله " ، ففتح الأمراء
الثون^(٣) ، وباعوا كل أردب بثلاثين درهماً، ففرج عن الناس، وفتح السلطان
حواصله في شعبان، وباع كل أردب بخمسة وعشرين [درهماً] . ودخل
القول الجديد والشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء
القمح الجديد، وانحلّ السعر.

ثم وقع الغلاء في أيام الأشرف شعبان، وسببه قصور النيل في سنة
ست وسبعين وسبعمائة^(٤) ، فلم يبلغ ستة عشر ذراعاً. وكُسِر (أ١٣) الخليج،

(١) المطارق جمع مطرق ، وهو العصاة من الخشب الخشن (roandin de bois brut) ،

كالتى يستعملها البدر في سوق الجمال (Doze: Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى و " فضجوا " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٦ ب) .

(٣) فى و " السوق " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٦ ب) .

(٤) وقع بمصر قبل هذا التاريخ وباء شنيع لم يبق ولم يذر، واجتاح أمم الشرق

والغرب معاً، وتاريخه سنة ٧٤٩ هـ، (١٣٤٨م) فصاعداً لمدة سنتين تقريباً،

وكان حرياً بالمقرىزى أن يفكره قبل الوباء الذى وقع فى السنة المذكورة هنا

بالمتن. وهذا الوباء العام هو المعروف فى تاريخ الشرق الأدنى بأسم الفناء الكبير

(Oreat Plague) ، وفى التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى باسم الموت

الأسود (Black Death) ، وكان سببه انتشار بعض الأمراض الوبائية من الهند

والشرق الأقصى إلى مصر وأوروبا، عنى أنه يظهر أن المقرىزى لم يذكر أخبار =

فأنحط الماء وارتفع السعر، فبلغ القمح كل أردب إلى مائة وخمسين [درهماً] ، والشعير إلى مائة، والخبز إلى رطل ونصف بدرهم. وعزّت الأقوات وقلّ وجودها، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات. وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس. و[فى هذا الغلاء] بلغ الفروج إلى مائة درهم فما فوقها، والبطيخة إلى مائة وخمسين ، وكان السائل يطلب اللبابة ليشتمها ، ويصيح حتى يموت، فأمر السلطان بجمع الفقراء، وفرّقهم على الأمراء ومياسير التجار. ودام [هذا] الغلاء نحو سنتين، ثم أغاث الله الخلق وأجرى النيل، فارتوت الأراضى، وحصل الرخاء بعد ما خامر اليأس القلوب، وظنّ الكثير من الناس دوام تلك الشدّة، واستبعد حصول الفرج، وهى حادثة شاهدناها، ومحنة أدركناها.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ

الْحَمِيدُ﴾ سورة الشورى الآية ٢٨.

= هذا الوباء المشهور عامداً، وربما كان السبب فى ذلك أنه قصر نفسه على أخبار الأوبئة الناجمة عن الغلاء وسوء الحكم فى مصر.

قطر

فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن

التى نحن فيها حتى استمرت طول هذه الأزمان التى دُفَعنا إليها

أعلم تولى الله أمرك بالحياطة والهداية، ولا أخلاك من الكفاية والعناية، أن الغلاء الذى حلّ بالخلق منذ كانت الخليقة، فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد فى قديم الزمان وحديثه، على ما عُرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران، وعُلِم من أخبار البشر، إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر: كقصور^(١) جرى النيل بمصر، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك. هذه عادة الله تعالى فى الخلق، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن يصبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم.

وأما هذا الأمر الذى حلّ بمصر فإنه بخلاف ما قدّمناه، وبيانه أن النيل قصر جريه فى سنة ست وتسعين وسبعمائة، فشرق أكثر الأراضى،

(١) فى و "القصور".

وتعطلت من الزراعة ، فارتفعت الأسعار حتى بلغ سعر القمح إلى سبعين درهماً الأردب.

ثم أغاث الله سبحانه وتعالى الخلق بكثرة ماء النيل حتى عمّ الإقليم كله، فأحبّ الناس لذلك الكثير من البذر ، وكانت الغلات بأيديهم قليلة، لعدم (ص ١٣ب) زراعة أكثر البلاد في سنة ست وتسعين كما مرّ. لا جرم أن تزايدت الأسعار، حتى بلغ سعر كل أردب من القمح إلى نحو مائتي درهم، والشعير بمائة وخمسة دراهم . وهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جرّى النيل بها أن يمتدّ الغلاء سنتين. فلما كان أوان مجئ الغلال الجديدة في سنة ثمان وتسعين، انحلت الأسعار إلى أن رجعت نحو ما كانت قبل حدوث الغلاء، أو قريباً منه.

واستمرّ الأمر حتى مات الظاهر برقوق في نصف شوال سنة إحدى وثمانمائة، ولم يكن حينئذ بالقاهرة [قمنح^(١)] يبلغ ثلاثين درهماً الأردب، فبيع في اليوم الثاني لوفته كل أردب من القمح بأربعين درهماً، وتزايد حتى بيع في سنة اثنتين وثمانمائة ببضع وسبعين درهماً الأردب. وتمادى الأمر كذلك إلى أن قصر مدّ النيل في سنة ست وثمانمائة، فشنع الأمر، وارتفعت الأسعار حتى تجاوز الأردب القمح أربعمائة درهم. وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس، وتزايدت أجر الأجراء - كالبنّاء والفعلة

(١) ما بين الحاصرتين وارد في م (٢٧ ب) فقط .

وأرباب الصنائع والمهن^(١) - تزايداً لم يسمع بمثله فيما قرب من هذا الزمن، حتى جاء الغوث من [عند] الله تعالى في سنة سبع وثمانمائة. فكثرت زيادة النيل، وعم النقع به الإقليم، فأحتج الناس إلى البذر. وكانت الغلال تحت أيدي أهل الدولة وغيرهم كثيرة جداً لأمرين: أحدهما احتكار الدولة الأقوات ومنع الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان، والثاني زكاة^(٢) الغلال في سنة ست وثمانمائة، فإنه حصل منها ما لم يسمع بمثله في هذا الزمن. فلأجل هذا وغيره، مما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، تفاقم الأمر وجلّ الخطب، وعظم الرزء، وعمت البلية وطمت ، حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف عن نصف الناس. وعمّ الموتان حتى نفقت الدواب في سنة ست و [سنة] سبع، وعزّ وجودها، وبلغت أثمانها إلى حد نستحي من ذكره. ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة^(٣)، والأمر فيها من اختلاف النقود وقلة ما يحتاج إليه، وسوء التدبير (١٤أ) وفساد الرأي، في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الأمر.

وسبب ذلك كله ثلاثة^(٤) أشياء لا رابع لها :

(١) في و ، وفي ك أيضاً (٣٤ ب) " المسبيين " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٧ ب) .

(٢) كذا في و ، وهو في م (٢٨ ب) بغير همزة ، وفي ك (٣٤ ب) " زكى " .

(٣) هنا دليل مادي لتحديد تاريخ هذه الرسالة، وبيان السبب الذي حداً المقريزي إلى كتابتها، وهذا فضلاً عما ورد بحدود المخطوط (Colophon) من إشارة إلى تاريخ الكتابة.

(٤) قبالة هذه العبارة بهامش الصفحة فر ، و ، الجملة الآتية " أسباب الغلاء والمحن والوبا بلان ٠٠٠ منها الرشوة ٠٠٠٠ : وما تشابه الرشوة " .

السبب الأول ، وهو أصل هذا الفساد ، ولاية الخطط السلطانية
 والمناصب الدينية بالرشوة ، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة
 وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شئ منها إلا بالمال الجزيل .
 فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغٍ إلى مالم يكن يؤمله من
 الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ، لتوصّله بأحد حواشى السلطان ، ووعده
 بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال ، فلم يكن بأسرع من تقدّده ذلك العمل
 وتسليمه إياه ، [و] ليس معه مما وعدّ به شئ قلّ ولا جلّ ، ولا يجد سبيلا
 إلى أداء ما وعدّ به إلا باستدانته بنحو النصف مما وعدّ به ، مع ما يحتاج
 إليه من شارة وزىّ وخيول وخدم وغيره ، فقتضاعف من أجل ذلك عليه
 الديون ، ويلازمه أربابها . لا جرم أنه يغمض ولا يبالي بما أخذ من أنواع
 المال ، ولا عليه بما يتلقفه في مقابلة ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من
 الدماء ، ولا بما يسترقّه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرّر على حواشيه
 وأعوانه ضرائب ، ويتعجلّ منهم أموالاً ، فيمدّون هم أيضاً أيديهم إلى أموال
 الرعايا ، ويشربون لأخذها بحيث لا يعقون^(١) ولا يكفون . ثم ينساق^(٢)
 البائس في جمع الأموال التى استدانها إذا أقتته استدعاءات من الأمراء
 وحواشى السلطان ، أو نزل به أحد منهم إن كان المتولّى متقلّداً عملاً من أعمال

(١) وردت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة هنا كالآتى: ' بحيث لا يعفوا ولا
 يكفوا' .

(٢) فى و ' يبناء البائس ' ، وفى م (٢٨ب) ببناء البائس ، وفى ك (٢٥) ' يبناء
 البائس' .

الريف، فيحتاج له إلى ضيافات سنوية وتقدام جلييلة من الخيول والرقيق وغير ذلك بحسب الحال^(١). ولا^(٢) يشعر مع ذلك إلا وغيره قد تقلد ذلك العمل بمال التزم به، وقد بقيت عليه جملة من الديون، فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره، ويَشْخَص^(٣) في أنحس حال، وقد أحيط كما ذكرنا بماله، ويعاقب العقوبات المؤلدة، فلا يجد بدءاً من الالتزام بمال آخر، ليقلد العمل الأول أو غيره من الأعمال.

فلما ذهبي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم، وتمزقوا كل (١٤ ب) ممزق، وجَلَّوا^(٤) عن أوطانهم، فقلت مجابى البلاد ومتحصلاً، لقللة ما يزرع [بها]، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم، وعلى من بقى منهم. وكان هذا الأمر كما قلنا مدة أيام الظاهر [برقوق] إلى أن حدث غلاء سنة [ست] وتسعين، كما مر ذكره،^(٥) فظهر بعض الخلل لا كله في أحوال عامة الناس لأمرين: أحدهما البقية التي كانت بأيدي الناس فاحتملوا الغلاء لأجلها، والثاني كثرة صلات

(١) في و " المال " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٨ ب) ، وكذلك ك (١٣٥) .

(٢) في و " ولم " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٨ ب) ، وكذلك ك (١٣٥) .

(٣) في و " لشخص " ، والرسم المثبت هنا من م (٢٨ ب) .

(٤) في و " فجلوا أهلها ورحيلهم عنها " ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٨ ب) ،

وكذلك ك (٣٥ ب) .

(٥) انظر ص ٤٠ - ٤١ .

الظاهر وتوالى برّه مدة الغلاء فى سنة سبع وثمان وتسعين ، بحيث لم يَمْت فيه أحد بالجوع فيما نعلم .

وانسحب الأمر فى ولاية الأعمال بالرشوة إلى أن مات الظاهر [برقوق] ، فحدث لموته اختلاف^(١) بين أهل الدولة [آل]^(٢) إلى تنازع وحروب قد ذكرتها فى كتاب مفرد^(٣) . فأقتضى الحال من أجل ذلك ثورة أهل الريف وانتشار الزعار^(٤) وقطاع الطريق ، فخيقت السبل ، وتعدّر الوصول إلى البلاد إلا بركوب^(٥) الخطر العظيم . وتزايدت غباوة أهل الدولة ، وأعرضوا عن مصالح العباد ، وانهمكوا فى اللذات لتحقق [عليهم] كلمة العذاب .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ سورة الإسراء الآية ١٦ .

والسبب الثانى ، غلاء الأطيان : وذلك أن قوماً ترقّوا فى خدم الأمراء يتولفون إليهم بما جَبَوْا^(٦) من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا

(١) فى و ' اختلافاً ' .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٨ ب) .

(٣) لا يوجد بين الكتب المعروفة للمقريزى مؤلف فى أخبار السلطان الظاهر برقوق وحده ، وربما كان المقصود بهذه الإشارة كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ولا يزال الجزء الخاص بهذا العهد منه مخطوطاً تحت الطبع فى المستقبل القريب .

(٤) الزعار — والزعره — والزعر أيضاً — جمع زاعر ، وهو اللص والمحتال والعيار والحرفوش والمتشرد (filou , vaurien) . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٥) ورد هذا اللفظ فى جميع النسخ المتداولة فى هذه الحواشى " بارتكاب " .

(٦) فى و ' جبون ' ، وفى م (١٢٩) ' يحيون ' .

مزيد القربة منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فتعدّوا إلى الأراضي الجارية فى إقطاعات الأمراء، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين، وزادوا فى مقادير الأجر. فثقلت لذلك متحصّلات موالِيهم من الأمراء، فأخذوا ذلك يداً يمنون بها إليهم، ونعمة يعدّونها إذا شاءوا عليهم. فجعلوا الزيادة ديدينهم كل عام، حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحواً من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث. لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين إلى ما ذكرنا، وبلغت قيمة الأردب من القمح المحتاج إلى بدّره ما تقدّم ذكره، وتزايدت كلفة الحرث (١٥ أ) والبذر والحصاد وغيره، وعظمت نكاية الولاية والعمال، واشتدّت وطأتهم على أهل الفلح، وكثرت المغارم فى عمل الجسور^(١) [وغيرها]، - وكانت الغلة التى تُحصّل من ذلك عظيمة القدر زائدة الثمن على أرباب الزراعة، سيما^(٢) فى الأرض منذ كثرت هذه المظالم -

(١) الجسور - والمفرد جسر - الطرق المرتفعة على جانبي النيل وفروعه وترعة، لحفظ البلاد من أخطار الفيضان، وهى نوعان : جسور سلطانية، وهى الجسور العامة التى يجب على السلطان تعهدها بالعمارة والإصلاح والمراقبة، وجسور بلدية وهى الجسور الخاصة الواقعة فى إقطاع من الإقطاعات، وعلى الأمير أو الجندي صاحب الإقطاع أن يتولاها ويلتزم تدبير المحافظة عليها، ويظهر أن العمل فى تلك الجسور كلها كان سخرة. انظر القلقشندي، صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٤٧ - ٤٥٠، ابن ممتى : قوانين الدواوين، ص ١٦ - ١٧، المقرئى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١، ص ٦٣٨، ٨٣٤ .

(٢) فى و ' سما فى الأرض' ، وكذلك فى ك (٣٦ أ) ، والصيغة المثبتة هنا من م . (١٢٩) .

منعت الأرض زكاتها^(١) ، ولم تؤت ما عهد^(٢) من أكلها ، والخسارة يابها كل واحد طبعاً . ولا يأتيها طوعاً . [و] مع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف ، الذين تزايدت في اللذات رغبتهم ، وعظمت في احتجار أسباب^(٣) الرفة نهمتهم ، استمرّ السعر مرتفعاً لا يكاد يُرجى انحطاطه ، فخرّب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة . فقلّت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ، لوت أكثر الفلاحين وتشردّهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب^(٤) ، ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن ازدياعها لعلوّ البذر وقلة المزارعين . وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذي قلنا على البوار والدمار ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ سورة الأحزاب الآية ٦٢ .

السبب الثالث رواج الفلوس : أعلم جعل الله لك إلى كل خير سبيلاً ذلولاً ، وعلى كل فضل علماً ودليلاً ، أنه لم تزل سنة الله في خلقه ، وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة إلى أن حدثت هذه الحوادث ، وارتكبت هذه العظائم التي قلناها في جهات الأرض كلّها ، عند كل أمة من الأمم كالفرس والروم وبنى إسرائيل ويونان والقطب ، بل والنبط والتبابعة أقيال اليمن ، والعرب العاربة والعرب المستعربة - ، ثم في الدولة الإسلامية من

(١) كذا في و ، وكذلك ك (١٣٦) ، وفي م (١٢٩) 'بركاتها' .

(٢) في و ، وكذلك ك (١٣٦) ' ما عوض ' ، والرسم المثبت هنا من م (١٢٩) .

(٣) في و ' ارباب ' .

(٤) في و ' البلاد ' ، والصيغة المثبتة هنا من م (٢٩) ب .

ظهورها، على اختلاف دولها التي قامت بدعوتها والتزمت بشريعتها، كبنى أمية بالشام والأندلس، وبنى العباس بالمشرق، والعلويين بطبرستان وبلاد المغرب وديار مصر والشام وبلاد اليمن، ودولة الترك بنى سلجوق، ودولة الديلم والمغل بالمشرق، ودولة الأكراد بمصر والشام وديار بكر، ثم ملوك الترك بمصر، - أن النقود التي تكون أثماناً للمبيعات وقيماً للأعمال (ص ١٥ ب) إنما هي الذهب والفضة فقط، لا يعلم في خبر صحيح ولا سقيم عن أمه من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا أبداً في قديم الزمان^(١) ولا حديثه نقداً غيرهما، حتى قيل [إن] أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه الصلاة والسلام، وقال لا تصلح المعيشة إلا بهما، رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق .

وستتلو عليك من نبأ ذلك ، ما يوضح لك صحة ما أشرتُ إليه ، فأقول مستعِيناً بالله ربى ، فإنه مولاي وحسبى : أعلم زادك الله علماً ، وآتاك بياناً وفهماً ، أن الدراهم التي كانت نقد الناس على وجه الدهر ما زالت ، حتى قيل [إن] أول من ضرب الدينانير والدراهم ، وصاغ الحلوى من الذهب والفضة ، فالخ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وتداول الناس ذلك من زمنه . وآخرها ما كانت الدراهم على نوعين :

(١) قبالة هذه العبارة ، بهامش الصفحة في و ، الجملة الآتية : ' مطلب أول من ضرب الدينار والدرهم ' .

السوداء^(١) الوافية، والطبرية العتق^(٢)، وهما غالب ما يتعامل به البشر، وكان أيضا لهم دراهم تسمى جوارفية^(٣). وكانت نقود العرب فى الجاهلية التى تدور بينها الذهب والفضة لا غير، ترد إليها من الممالك دنائير الذهب قيصرية من قبل الروم، ودراهم فضة على نوعين - سوداء وافية، وطبرية عتيقة. وكان وزن^(٤) الدرهم والدينار فى الجاهلية مثل وزنهما فى الإسلام

(١) عرف المقرزى فيما يلى هنا (ص ٦٣) الدراهم السوداء - أو السود ، أو المعودة - بالآتى: ' وحقيقة الدراهم السود النحاس فيه اليسير من الفضة ' . . . ' أنظر ما يلى بهذه الصفحة (سطر ٩) ، وكذا القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٣ : ص ٤٤٠ - ٤٤٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨) .

(٢) ذكر (De Sacy: Traité de la Monnaie Musulmane, P. 12, N.3) أن الدراهم الطبرية العتق سميت بذلك الأسم لأنها كانت تأتى إلى بلاد العرب من مدينة طبرية بالشام، حيث كانت معظم تجارة العرب مع الدولة الرومانية، أو أنها عرفت بتلك التسمية لأنها كانت تضرب فعلا بتلك المدينة زمن الرومان.

(٣) كذا فى و ، وصيغة م " جوادفية" ، وفى ك " جوارفه" ، وفى المقرزى : (كتاب شنور العقود فى ذكر النقود - Tyehsen ، ص ٣) جوارفية، ولم يستطع : (De Sacy Op. Cit p.13. N.2) أن يجد معنى مفهوما لذلك اللفظ. هذا وقد ذكر : (Sauvaire : Matériaux Pour Servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes. II. P. 150 N.1 أنه يحتمل قراءة هذا اللفظ بصيغة " جارقة" فى بعض النسخ الخطية التى وقعت له من هذا الكتاب ، وأنه جمع " جريقى" ، أى إغريقى. على أنه يوجد فى محيط المحيط أن الجورق - والجورف أيضا - الشئ الظليم، ففعل المراد بلفظ " جوارفيه" نوع من الدراهم السود لظلمتها.

(٤) قبالة هذه العبارة ، بهامش الصفحة فى و ، الجملة الآتية : ' وزن الدرهم والدينار فى الجاهلية والإسلام ' .

مرتين، ويسمى المثقال^(١) درهما ، والمثقال ديناراً ولم يكن شئ من ذلك يتعامل به أهل مكة في جاهليتها، وإنما كانت تتعامل بالمثاقيل وزن الدراهم وزن الدنانير. وكانوا يتعاملون بأوزان اصطاحوا عليها فيما بينهم: وهى الرطل الذى هو اثنتا^(٢) عشرة أوقية ، والأوقية وهى أربعون درهما، فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم . [والرطل الآن بمصر اثنتا عشرة أوقية، والأوقية اثنتا عشر درهما ، فيكون الرطل مائة وأربعين درهما، ورطل دمشق اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية خمسون درهما، فيكون الرطل^(٣) ستمائة درهم] . والنش وهو نصف الأوقية - حوت صاده شيئاً فليل نش - وهو

(١) عرف المقرئى (كتاب الأوزان والأكيال الشرعية - Tychsen - ، ص ٦٠) المثقال بأنه " أسم لما له ثقل، سواء كبر أو صغر، وغلب عرفه على الصغير، وصار فى عرف الناس أسماً على الدينار" . ويرجع إطلاق المثقال على الدينار فى العصر الإسلامى إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ (٤٩٥ م) ، بعد إصلاحه نظام النقد فى الدولة الأموية، إذ جعل المثقال وحدة الذهب، وقرر أن يكون وزن الدينار مثقالاً واحداً كما كان قبلاً، (أى ٦٥,٥ حبة، أو ٤,٢٥ جراماً) ، وقد حدث مثل ذلك أكثر من مرة فى عهد المماليك بمصر. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤٤ ، و (Enc. Isl. Arts. Mithkal Dinār) هذا ويفهم من المتن أن المثقال كان يطلق أيضاً على الدرهم من الفضة عامة، وإنما الراجع نقلاً عن الماوردي (الأحكام السلطانية ، ص ١٤٧) أن الدراهم المتداولة فى بلاد العرب أيام الجاهلية كانت على ثلاثة أوزان، ومن بينها واحد فقط على وزن المثقال.

(٢) فى و " اثنتى عشر وقيّة" ، وقبالة هذه العبارة بهامش الصفحة، العبارة الآتية : 'الرطل الوقية' .

(٣) ليس لما بين الحاصرتين وجود فى و ، أو فى ك (١٣٧) ، ولكنه فى م (١٣٠) .

عشرون درهماً، والنواة^(١) وهي خمسة دراهم. والدراهم على قسمين : طبرية
وزنة الدرهم منها ثمانية نوانيق، وقيل أربعة نوانيق، وبغلية^(٢) وزنة
الواحد منها أربعة نوانيق، وقيل ثمانية نوانيق وزنة الدرهم من
الجوارقية^(٣) (ص ١٦٦) أربعة نوانيق ونصف دانق، والدانق زنته ثمان
حيات وخُمساً حبة من حيات الشعير للتوسطة التي لم تقسم، وقد قُطع من
طرفيها ما أمتدَّ . [والدرهم البغلي كان^(٤) يقال له الوافي، ووزنه وزن
الدينار، وعلى ذلك وزن دراهم قارس، والدرهم الجواز^(٥) ينقص كل عشرة
منها عن البغلية ثلاثة، فكل سبعة بغلية تكون عشرة بالجواز] .

(١) أوضح المعريزي (الأوزان والكيال الشرعية - Tyehsen - ، ص ٢٣) هذين
اللفظين كلياً بالعبارة الآتية، ونصها مصححاً : " العرب تقول نواة فتعني بها خمسة
دراهم، كما تقول لثني لثنين درهماً، والأوقية للأربعين درهماً . . . " .

(٢) نكر (Sauvire: Op. Cit. II Pp. 137 - 130) أن الدراهم البغلية هي التي ضربها
رجل اسمه رأس البقل اليهودي بأمر الخليفة عمر بن الخطاب. راجع أيضاً
(De Sacy: Op. Ibn Battoutah: Voyages - ed Defrémery. I P. 168. , Cit.)
(P.12.N.4.) ، حيث وردت العبارة الآتية: " ودراهمهم فضة خالصة تعرف
بالبغلية. (نظر الصفحة التالية، سطر ٣) .

(٣) انظر ص ٤٨ ، حاشية ٣ .

(٤) ليس لما بين الحصريتين وجود في و ، أو في ك (١٣٧) ، ولكنه في م (٣٠ب) .

(٥) المرجح أن المقصود بالدرهم الجواز ما هو جائز شرعاً في المعاملات، ففي محيط
المحيط " جوز ٠٠ الدراهم جطها جقزة أي رانجة ٠٠٠ ، وتجوز الدراهم قبلها على
ما فيها من لزيف . انظر أيضاً (Sauvaire: Op. Cit. II P.138.N.I) .

وكان الدينار يسمى لوزنه ديناراً ، وإنما هو تبر^(١) ، ويسمى الدرهم لوزنه درهما ، وإنما هو تبر . وكانت زنه كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، والمثقال وزنه اثنان وعشرون قيراطاً إلا حبة ، وهو أيضاً زنته ثنتان وسبعون حبة شعير مما تقدم ذكره .

وقيل إن المثلقال منذ وضع لم يختلف في جاهلية ولا إسلام ، ويقال إن الذى اخترع الوزن^(٢) فى الزمن القديم بدأ بوضع المثلقال فجعله ستين حبة ، زنة الحبة مائة من حب الخردل البرى المعتدل ، وإنه ضرب صنجة بزنة المائة الحبة الخردل ، وجعل بوزنها والمائة الحبة صنجة ثانية ، ثم صنجة ثالثة ، حتى بلغ مجموع الصنج خمس صنجات . فكانت نصف سدس مثقال ، وأضعف^(٣) وزنها وصارت صنجة ثلث مثقال ، فركب منها نصف مثقال ، ثم مثقال ، [وخمسة^(٤) ، وعشرة ، وفوق ذلك] ، فعلى ذلك تكون زنة المثلقال الواحد ستة آلاف حبة ، وكانت الموازين إنما هى الشواهين^(٥) .

(١) التبر هنا القطعة من المعدن عامة ، سواء فى ذلك الذهب والفضة والنحاس

والحديد . انظر محيط المحيط ، و (Sauvare: Op. Cit. II. P.144.)

(٢) قبالة هذه الجملة ، بهامش الصفحة فى و ، العبارة الآتية : " اخترع الوزن " .

(٣) المقصود بفعل " أضعف " هنا ضعف ، أو ضاعف ، أى جعل الشئ ضعفين ، على أن صيغة هذا الفعل بالآلف المتوسطة هى أبلغ الصيغ الثلاث . (انظر محيط المحيط) .

(٤) ليس لما بين الحاصرتين وجود فى و ، أو فى ك ص (٣٧ب) ، حيث بالعبارة كثير من الاضطراب ، وقد أضيف ما بالمتن هنا من م (٣٠ب) .

(٥) فى و فقط " الشرايين " ، والشواهين جمع شاهين ، ومن معانيه عمود الميزان (محيط المحيط) ، ولعل المقصود هنا الميزان كله .

فلما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أقر أهل مكة على ذلك كله، وقال الميزان ميزان مكة، وفي رواية ميزان المدينة. وفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الأموال على ذلك، فجعل في كل خمس أواق من الفضة الخالصة التي لم تُغشَ خمسة دراهم وهي النواة، وفرض في كل عشرين ديناراً نصف دينار. وعمل بذلك أبو بكر رضي الله عنه أيام خلافته، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يغير منه شيئاً. فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر النقود على حالها، ولم يعرض لها بشئ حتى كانت سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى السنة السادسة^(١) من خلافته، وأتته الوفود، وأقبلت أهل البصرة فيهم الأحنف بن قيس، فكلم عمر رضى الله عنه فى مصالح أهل البصرة، فوجه معقل بن يسار، فاحتقر لهم نهر معقل ووضع الجريب^(٢) والدرهمين الوزنة^(٣) فى الشهر. وضرب عمر رضى الله عنه الدراهم على نقش الكسروية^(٤)، وشكلها بأعيانها، (١٦ب) غير أنه

(١) فى و ، وكذلك ك (٣٧ب) ' الثانية ' ، وفى م (١٣١) ' الثامنة ' ، وهو خطأ واضح ،

إذ المعروف أن عمر بن الخطاب تولى الخلافة سنة ١٣ هـ .

(٢) الجريب هنا مقياس للأرض، ومقداره عشر قصبات فى عشر قصبات، على أنه يختلف عن ذلك قليلاً باختلاف المكان والزمان، والجريب فى الأصل مكيال، وسعته ما يكفى من الحب لبذر مساحة معينة، وسميت تلك المساحة لذلك باسم الجريب. أنظر ص ٦٣ (سطر ٨) ، وكذلك الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٤٦ ، ١٤٦ ، و (Enc. Isl. Art. Djarib) ، وما هنالك من مراجع .

(٣) كذا فى م (١٣١) ، وهو فى و ، وكذلك ك (٣٧ب) ' الدرنة ' .

(٤) الكسروية نسبة إلى كسرى ، والمقصود الدراهم الفارسية .

زاد فى بعضها " الحمد لله " ، وفى بعضها "رسول الله" . وعلى آخر " لا إله إلا الله وحده" ، وعلى آخر " عمر " ، والصورة صورة الملك لا صورة عمر ، وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل. فلما بويح عثمان [بن عفان] رضى الله عنه ضرب دراهم ، ونقشها " الله أكبر " .

فلما اجتمع^(١) الأمر لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة ، قال له يا أمير المؤمنين: " إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر الققيز^(٢) ، وصار يؤخذ عليه ضربية أرزاق الجند، وترزق عليه الذرية^(٣) ، طلبا للإحسان إلى الرعية. فلو جعلت أنت عيارا دون ذلك العيار ازادات الرعية به مرفقا ، ومضت لك به السنة الصالحة" . ف ضرب [معاوية] السود الناقصة من ستة دوانيق ، تكون خمسة عشر قيراطا غير حبة أو حبتين. وضرب منها زياد، وجعل وزن عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وكتب عليها^(٤) ١٠٠٠ ، فكانت تجرى مجرى

(١) يلاحظ أن المقرئى عبر خلافة على بن أبى طالب، ولم يذكر ما لعله أحدث من تغيير فى الدراهم مدة خلافته القصيرة، على أنه يوجد فى (Sauvare: Op. Cit. 11 . P. 189) ذكر لدراهم " علوية" ، وكانت من معاملة اليمن .

(٢) الققيز مكيال قديم للحبوب ، وسعته ما يقرب من ربع أردب، وهو أيضا مقياس للأرض، وقدره مائة وأربعة وأربعون ذراعا، والمعنى الأول هو المقصود هنا. أنظر (Enc. Isl. Art. Kafiz) و (De Sacy: Op. Cit. P. 18) ، والمساوردى (الأحكام السلطانية، ص ١٤٩) .

(٣) كذا فى ك (٣٨) فقط ، وهو فى و "الذرية" ، وفى م (١٣١) كذلك بنقط ناقص.

(٤) بيض فى و ، يسع كلمة واحدة ، لعلها ' زياد ' .

الدرهم. وضرب معاوية أيضا دنانير عليها تمثاله متقلدا سيفاً. فوقع منها دينار ردى في يد شيخ من الجند، فجاء به معاوية ورماه، ثم قال: " يا معاوية ! إنا وجدنا ضربك شر ضرب " ، فقال له معاوية : " لأحر منك عطاك ، ولأكسونك القطيفة^(١) " .

فلما قام عبد الله بن الزبير رضى الله عنه^(٢) بمكة ضرب دراهم مدورة، فكان أول من ضرب الدراهم المستديرة، وإنما كانت قبل ذلك ما ضرب منها فإنه ممسوح غليظ قصير، فدورها عبد الله ونقش بأحد الوجهين " محمد رسول الله " ، وبالأخرة " أمر الله بالوفاء والعدل " . وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق، وجعل لكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأعطاهم الناس فى العطاء ، حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى العراق من قبل عبد الله بن مروان، فقال : " ما ينبغي أن نترك من سنة المنافق شيئاً " فغيرها.

فلما استوثق الأمر لعبد الملك [بن مروان] ، بعد مقتل [عبد الله] ومصعب ابنى الزبير بن العوام، فحص عن النقود والأوزان والمكاييل، ضرب الدنانير والدراهم، فى سنة ست وسبعين من الهجرة. وسبب ذلك أنه (١٧أ) كتب فى صدر كتبه إلى الروم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وذكر النبى صلى الله عليه

(١) لعل معنى القطيفة هنا جل البعير (Couverture de chame au) . أنظر

. (Dozy Supp. Dict. Ar.)

(٢) فى و " عنهما " .

وسلم مع التاريخ. فكتب إليه ملك الروم^(١) : - إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فتركوه، والا أتاكم في دنانيرنا من فكر نبيكم ما تكرهون". فعظم ذلك عليه ، وكلم خالد بن يزيد بن معاوية ، فأشار عليه أن يترك دنانير الروم، وينهى عن المعاملة بها، ويضرب للناس دراهم [ودنانير^(٢)] فيها ذكر [الله]. فضرب الدينار والدرهم، فجعل وزن الدينار اثنتين وعشرين قيراطا سوى [حبة بالخامى^(٣)] ، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سواء [، والقيراط أربع حبات، وكل داتق قيراطين ونصف. وكتب إلى الخجاج بالعراق أن اضربها قبلك، فضرب الخجاج الدراهم، ونقش فيها : (قل هو الله أحد) ونهى أن يضرب أحد^(٤) غيره. فضرب سمير^(٥) اليهودى دراهم، فأخذه ليقتله، فقال له : - عيار درهمي أجود من [عيار] دراهمك، فلم تقتلني؟ فأبى إلا قتله. فوضع [سمير] للناس صنج الأوزان ليتركه، فلم وضع سمير الصنج كف بعضهم عن بعض. قدمت تلك الدراهم مدينة رسول الله صلى الله

(١) يقصد المفريزي بالروم هنا الدولة البيزنطية ، وكان إمبراطورها تلك السنة ، وهي توافق سنة ٦٩٥ م ، جستين الثاني (Justinian II) . أنظر :

(Camb. Med. Hist. Vol. 2P. 457) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢١ ب) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢١ ب) .

(٤) في و " أحنا .

(٥) نكر (De Sacy: Op. Cit. P. 22) أن سميرا هنا من أهل بلدة تيمنا من بلاد

العرب، قرب حدود الشام، وأن الخليفة عبد الملك بن مروان كان قد كلفه بضرب الدراهم، وأن تلك الدراهم عرفت بأسم السميرية. أنظر أيضا ما يلي ، ص ٥٥ ،

سطر ٣ .

عليه وسلم، و [بها] بقية من الصحابة، فلم ينكروا منها سوى نقشها، فإن فيه صورة، وكان سعيد^(١) بن المسيب يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئا. فجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه على المثقال الشامى، وهى الميالة^(٢) الوازنة زيادة المائة دينارين.

ويقال^(٣) فى سبب ضرب عبد الملك الدنانير والدرهم كذلك أن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان قال له : "يا أمير المؤمنين! إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يخدون فى كتبهم أن أطول الخلفاء عمرا من قدس الله فى الدرهم، فعزم على ذلك، ووضع السكة^(٤) الإسلامية. وكان^(٥) الذى ضرب إذ ذاك الدراهم السميرية. وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج بالعراق، فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب الدراهم بها، وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كى يحصيه

(١) كان سعيد بن المسيب من كبار التابعين وفقهائهم، وقد توفى سنة ٩٤ هـ. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ج ١، ص ٢١٠).

(٢) كذا فى جميع النسخ المتداولة هنا، وقد ترجم (De Sacy: Op. Cit. P. 21) هذا اللفظ إلى (trébucant) ، أى واقية الوزن.

(٣) يوجد قبالة هذه العبارة، بهامش الصفحة فى و ، الكلمة الآتية: " مهمة " .

(٤) عرف الماوردى (الأحكام السلطانية، ص ١٤٩) السكة بأنها " الحديدية التى يطبع عليها الدراهم، ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة " . وقد شرح المقرئى أيضا (كتاب الأوزان والأكيال الشرعية - Tychsen - ، ص ٨٦) لفظ السكة بأن " الدينار والدرهم المضروبين ، سمى كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدية المعلمة، ويقال لها السكة، وكل مسمار عند العرب سكة " .

(٥) فى و " وكان الرجل الذى ضرب أذ ذاك الدراهم رحل " .

عندهم ، وان تضرب الدراهم (١٧ب) بالآفاق على السكة الإسلامية . وتحمل إليه أولا فأولا . وقدر في كل مائة درهم درهما عن الحطب وأجرة الضراب ، ونقش [على أحد] وجهي الدرهم « قل هو الله أحد » ، وعلى الآخر لا إله إلا الله ، وطوق الدرهم من وجهيه بطوق ، وكتب في الطوق الواحد " ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا " ، وفي الطوق الآخر " محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " .

ونقل الثقات أن الذي دعا عبد الملك إلى ما صنع من ذلك أن الدراهم كانت على وجه الدهر سوداء وافية وطبرية عتقا ، فلما نظر عبد الملك في أمور الأمة قال إن هذه الدراهم تبقى مع الدهر ، وقد جاء في الزكاة أن في كل مائتين - أو في^(١) كل خمس أواق - خمسة دراهم ، وأشفق إن جعلها^(٢) كلها على مثال السود العظام مائتين عددا يكون ذلك بخسا^(٣) للزكاة ، وإن عملها كلها مثال الطبرية - ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عددا وجبت الزكاة فيها - كان في ذلك حيف وشطط على رب المال . فأتخذ [عبد الملك منزلة بين] منزلتين فيها كمال الزكاة ، من غير بخس ولا إضرار بالناس ، مع موافقة ما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك .

(١) في جميع النسخ المتداولة هنا " وفي " ، وقد عدلت بالصيغة التي بالمتن زيادة في التوضيح .

(٢) في و " يجعلها " ، والرسم المثب : هنا من م (١٣١) .

(٣) في و " بخس " ، وفي م (٣١ ب) " بخس " .

وكان المسلمون قبل عبد الملك - وإلى أن صنع ما ذكر - يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار^(١) والصغار. فلما اجتمع الناس مع عبد الله على ما عزم عليه من ذلك عمد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق ، وإلى الدرهم من الصغار فإذا به يزن أربعة دوانيق ، فجمعهما معا وجعل زيادة الأكبر على نقص الأصغر ، وجعلهما درهماين متساويين ، زنة كل منهما ستة دوانيق سواء. واعتبر المثقال أيضا ، فإذا هو ما برح فى آباد الدهر موفيا محدودا ، كل عشرة من الدراهم التى زنة الواحد منها ستة دوانيق تكون سبعة مثاقيل سواء ، فأقر ذلك وأمضاه ، ولم يعرض لتغييره.

وكان فيما عمل عبد الملك من الدراهم ثلاث فضائل : إحداها أن كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم ، وثانيها أنه عدل بين كبارها وصغارها حتى اعتدلت ، (ص ١٨) وصار الدرهم ستة دوانيق ، وثالثها أنه موافق لما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط. فمضت بذلك السنة ، واجتمعت عليه الأمة ، وضبط هذا الدرهم منها خمسون حبة وخمسا حبة من الشعير الذى وصف آنفا ، ويقال له درهم الكيل : فإن الرطل الشرعى منه يتركب ، ومن الرطل يتركب المد ، ومن المد يتركب الصاع. وإنما جعلت العشرة من الدراهم الفضة بوزن سبعة مثاقيل من الذهب ، لأن الذهب أوزن من الفضة وأثقل ، وكانهم جربوا حبة من الفضة ،

(١) المقصود بعبارة " الكبار والصغار " هنا الدراهم الوافية وغير الوافية. انظر ما يلى.

ومثلها من الذهب، ووزنوهما فكانت زنة الذهب أزيد من زنة الفضة بقدر ثلاثة أسباع الدرهم، [فلذلك جعلوا كل عشرة دراهم^(١) بوزن سبعة مثاقيل، لأن ثلاثة أسباع الدرهم] إذا أضيفت عليه بلغت مثقالا، والمثقال إذا نقص منه ثلاثة أعشاره بقى درهما، وكل عشرة مثاقيل تزن أربعة عشر درهما وسبعى درهم. وقيل إن واضح الأوزان جعل الدرهم ستين حبة، لكنه قال كل عشرة دراهم تعدل زنة سبعة مثاقيل، فيكون على ذلك زنة الحبة سبعين حبة من [حب] الخردل، ومنها ركب الدرهم فما فوقه إلى الألف، كما تقدم في المثقال.

وضرب الحجاج الدراهم البيض^(٢)، ونقش عليها «قل هو الله أحد»، فقال القراء: قاتله الله! أى شئ صنع للناس؟ الآن يأخذه الجنب والحائض، وكانت الدراهم قبل ذلك منقوشة بالفارسية. فكرة ناس من القراء مسها^(٣) وهم على غير طهارة، فقيل لها المكروهة، وصارت سمة لها وعلامة عليها. ولقد سئل مالك رضى الله عنه عن تغيير كتابة الدينار والدراهم، لما فيها من كتاب الله تعالى، فقال: "أول ما ضربت على عهد عبد الملك بن مروان والناس متوافرون، فما أنكر أحد ذلك، وما رأيت أهل العلم

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى م فقط (٣.٢ ب) .

(٢) المقصود بالدراهم البيض ما كان منها نقيا وافى الوزن، وكان الحجاج بن يوسف أول من ضربها، ويسمى الدينار النقى باسم الدينار الأبيض أيضا. راجع

(Sauvair: Op. Cit. 11. PP. 121 – 122, 156, 227 - 229) .

(٣) الضمير عائد على الدراهم البيض .

أنكروه. ولقد بلغنى أن ابن سيرين كان يكره أن يبيع بها ويشترى، وما زال أمر الناس كذلك، ولم أر أحدا منع ذلك هاهنا".

(ص ١٨ ب). وقيل لعبد الملك^(١) رحمه الله تعالى: " هذه الدراهم

البيض فيها كتاب الله ، يقبلها اليهودى والنصرانى والجنب والحائض، فإن رأيت أن تأمر بمحوها" ، فقال: " اردت أن تحتج علينا الأمم أننا غيرنا توحيد ربنا واسم نبينا" ، ومات عبد الملك بن مروان والأمر على ما تقدم . وخلفه ابنه الوليد، ثم سليمان بن عبد الملك، [ثم عمر^(٢) بن عبد العزيز] .

فلما استخلف يزيد بن عبد الملك ضرب الهبيرية عمر بن هبيرة بالعراق على عيار ستة دوانيق، فكان أول من شدد فى أمر الوزن، وخلص الفضة أبلغ [من] تخليص من قبله. فلما قام هشام بن عبد الملك، وكان جموعا للمال، أمر خالد بن عبد الله القسرى فى سنة ست ومائة من الهجرة أن يصير العيار إلى وزن سبعة، وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسط، ف ضرب الدراهم بواسط، وكبر السكة، فكان خالد فى تخليص الفضة أشد ممن قبله، ف ضربت الدراهم على السكة الخالدية، حتى عزل خالد فى سنة عشرين [ومائة^(٣)] . وتولى يوسف بن عمر الثقفى، فأفرط فى الشدة بحيث

(١) فى و " لعمر بن عبد العزيز ، وهو خطأ واضح برهنة ما يلى بهذه الصفحة (سطر ٧) ، والأسم المثبت هنا من م (٣٢ ب) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٢ ب) ، وهو فى ك أيضا (٤٠ أ) .

(٣) فى و " يزيد بن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز" . أنظر
 . (Muir: The Caliphate P.374)

امتحن يوما العيار فوجد درهما ينقص حبة، فضرب كل صانع ألف سوط،
وكانوا مائة صانع ، فضرب في حبه مائة ألف سوط.

وصغر [يوسف] السكة، وأجراها على وزن سبعة، وضربها بواسطة
وحدها حتى قتل الوليد بن يزيد في سنة ست وعشرين ومائة. فلما استخلف
مروان بن محمد الحمار - آخر خلفاء بني أمية - ضرب الدراهم بالجزيرة
على السكة بحران حتى قتل. وكانت الهبيرية، والخالدية، واليوسفية،
أجود نقود بني أمية.

وكانت دولة بني العباس ، فـضرب السـفاح الدرهم بالأنبار^(١) ،
وعملها على نقش الدنانير، فكتب عليها السكة العباسية، وقطع منها،
ونقصها حبة، ثم نقصها حبتين . فلما قام أبو جعفر المنصور نقصها ثلاث
حبات، وسميت تلك الدراهم ثلاثة أرباع قيراط، لأن القيراط أربع حبات،
وكانت الدراهم كذلك. وحدثت الهاشمية^(٢) على المثلقال البصرى (ص ١١٩)،
وكانت تقطع على المثاقيل الميالة الوازنة التامة، فأقامت الهاشمية على
المثاقيل، والعقق على نقصان ثلاثة أرباع قيراط مدة المنصور، وإلى سنة ثمان

(١) كانت الأنبار مقر الخلافة العباسية إبان قيامها سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) ، فسكنها
السفاح مدة خلافته، واستقر بها بعده أبو جعفر المنصور حتى بدأ فسى تأسيس
بغداد سنة ١٣٥ هـ (٧٦٢م)، وهذا يفسر سبب ضرب الدراهم بها . أنظر
ياقوت (معجم البلدان ، ج ١، ص ٣٦٧، ج ٣، ص ٩٢٥) ،
وكذلك (Enc. Isl. Art. Anbar)

(٢) الهاشمية نسبة إلى بنى هاشم، والمصود بذلك نقود الخلفاء العباسيين .
أنظر (Sauvair : Op. Cit. II .P. 244)

وخمسين ومائة. ف ضرب المهدى فيها سكة مدورة فيها نقط، ولم يكن لموسى الهادى بن المهدى سكة تعرف. وتمادى الأمر على ذلك إلى شهر رجب سنة ثمان وسبعين ومائة، فصار نقصانها قيراطا غير ربع حبة.

فلما صير الرشيد السكك إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى، وكتب اسمه بمدينة السلام، وبالمحمدية^(١) من الرى، على الدنانير والدرهم، وضرب دنانير [زنة] كل دينار [منها] مائة مثقال، كان يفرقها على الناس فى النيروز والمهرجان، وكتب عليها :

وأصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفرا

يزيد على مائة واحدا إذا ناله معسر أيسرا

وكان لنبي العباس دنانير الخريطة^(٢)، وهى مائة دينار فيها مائتان، مكتوب على كل دينار " ضرب الحسنى لخريطة أمير المؤمنين ". قلت وهذه الدنانير هى التى ينعم منها [أمير المؤمنين] على المغنين

(١) سميت دراهم الرى بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن عطا (عتاب) الكندى، وإلى الرى من بلاد الهيتل (أى بلاد ما وراء النهر)، فى عهد الخليفة هارون الرشيد، وقد عرفت بتلك التسمية أيضا دراهم فرغانة والصفد وكشك ونسف وأشر وسنة وسمرقند. وكان لمحمد بن عطا أخوان، وكلاهما من ولاية الأعمال زمن الرشيد، وقد ضرب كل منهما دراهم إقليمية باسمه، فكان غطريف بن عطا واليا على خراسان، وإليه نسبت الدراهم الغطريفية ببخارى، وكان مصيب بن عطا واليا على الشاش وخجندة، وإليه نسبت الدراهم المصيبة. أنظر

(Sauvair : Op. Cit. PP. 191 - 192, 217 - 218)

(٢) يظهر أن المقصود بالخريطة هنا الخزانة الخليفة، ففى (Dozy: Supp. Dict. Ar.)

صاحب الخريطة بمعنى صاحب بيت المال.

ونحوهم، ومعنى الحسنى القصر الحسنى الذى هو الآن بمدينة بغداد، وعمره الحسن بن سهل. وصير نقصان الدراهم قيراطا غير حبة، واستمر الأمر كذلك إلى شهر رمضان سنة أربع وثمانين ومائة [فصار النقص أربعة قرايط وحبة^(١) ونصف حبة]، وصارت لا تجوز إلا فى المجموعة أو بما فيها، وبطلت.

فلما قتل الرشيد جعفر بن يحيى، [وتولى الوزارة الفضل بن الربيع]، صير السكة إلى السندى [بن شاهر^(٢)]، فضرب الدراهم على مقدار الدنانير، وسبيل الدنانير فى سائر ما تقدم ذكره سبيل الدراهم، فكان خلاص السندى جيدا لأشد الناس خلاصا للذهب والفضة. وفى شهر رجب سنة إحدى وتسعين ومائة نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبة، وما زال الأمر فى ذلك كله عصرا يجوز [فيه الدينار^(٣)] جواز المئاقيل. ثم ردت [المئاقيل^(٤)] إلى وزنها، حتى كانت أيام الأمير محمد بن هارون الرشيد، فصير دور الضرب إلى العباس بن الفضل بن الربيع، فنقش (ص ١٩ب) فى السكة بأعلى السطور " ربي الله "، وبأسفلها " العباس بن الفضل "، فلما قتل الأمين، واجتمع الناس على عبد الله المأمون، لم يجد أحدا ينقش الدراهم، فنقشت بالمخراط كما تنقش الخواتيم.

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٤ أ) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (De Sacy: Op. P. 29 . N.2) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة (De Sacy: Op. Cit. P. 30) .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين من ك (١ : أ) .

فيها. ولم ينضبط حتى الآن أمرها ، وأرجو أن يوفقني الله على تفصيل ذلك ،
[إن شاء الله تعالى]^(١) .

فصل

—

وأما مصر من بين الأمصار فما برح نقدتها المنسوب إلى قيم الأعمال
وأثمان المبيعات الذهب خاصة ، كل سائر دولها جاهلية وإسلاما. يشهد
لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب ،
كما ستقف إن شاء الله تعالى على تفصيله ، فيما أنا عازم عليه من أفراد تأليف
يحتوى على عامة أحوال خراج مصر ، منذ مصرت وعرفت [أخبارها] ،
وإلى هذا الزمن الحاضر^(٢) .

= والحكومات، والستوقة، وهي التي كانت تصنع من نحاس مغطى بطبقة من
الفضة، ولم تكن معتبرة في الدراهم الشرعية.

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٤ ب) ، وهو فى ك (٤١ ب) .

(٢) لا يوجد بين المعروف من مؤلفات المقرئى كتاب خاص بموضوع خراج مصو :
على أن كتابه المواعظ والاعتبار (ج ١، ص ٧٥ - ٧٩) يشمل مقالتين ضافيتين فى
هذا الموضوع. ————— وع ، وهذا المقصودتان بهذه الإشارة. أنظر المقرئى
(شذور العقود - Tychsen - ، ص ٢٨) .

وكفى من الدلالة على صحة ما تقدم حديث أبي هريرة رضى الله [عنه]
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " منعت العراق درهمها وقفيزها ،
[ومنعت الشام مدها ودينارها^(١)] ، ومنعت مصر أردبها ودينارها" ،
أخرجه مسلم وأبو داود. فذكر صلى الله عليه وسلم كل بلد وما يختص به من
كيل ونقد، وأشار إلى أن نقد مصر الذهب. وكان في هذا الحديث ما يشهد
بصحة فعل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، (ص ٢٠٠) [فإنه]
لما افتتح العراق في سنة ست عشرة من الهجرة بعث عثمان بن حنيف،
ففرض على أرض السواد على كل جريب من الكرم عشرة دراهم، و [على]
كل جريب [من] النخل ثمانية دراهم، وعلى جريب القصب والشجر ستة
دراهم، وعلى جريب^(٢) البر أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين،
وكتب بذلك إلى عمر [بن الخطاب] رضى الله عنه، [فارتضاه^(٣)] .

ولما فتحت مصر في سنة عشرين على الصحيح فرض^(٤) عمرو بن العاص
على جميع من بها من القبط دينارين، فجبيت أول عام اثنا عشر ألف ألف
دينار، وقيل جبيت ستة عشر ألف ألف دينار، وضربت الجزية على كل

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٤ب) ، وهو وارد فى ك أيضا (١٤١ب) .

(٢) قبالة هذه العبارة ، بهامش الصفحة فى و ، الجملة الآتية: ' الجريب عشر قصبات
والقصبه ستة أذرع، والقفيز عشر الجريب، من [كتاب] تحرير الأحكام لابن
جماعة' .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٤ب) ، وهو فى ك أيضا (١٤٢) .

(٤) فى و ' ففرض ' .

علاج من علوج مصر الذين أقروا لعمارة الأرض أربعة دنانير في كل سنة، سوى خراج الأرض، فأقر ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه. وأما أهل السواد فإن عمر رضى الله عنه أقرهم على منزلة أهل الذمة، وفرض على كل علاج منهم أربعين درهما، فجببت مائة ألف ألف وسبعة وثمانين ألف ألف درهم، [وقيل مائة ألف^(١) ألف وستون ألف درهم]، وما زال خراج السواد دراهم. ولولا خوف الإطالة لسردت الأخبار التى توضح أن معاملة مصر ما زالت بالذهب فقط ما يقوم [منه] سفر ضخمة، ﴿وفوق كل نى علم عليم﴾.

وأما الفضة فكانت بمصر تتخذ حليا وأواني، وقد يضرب منها الشئ للمعاملات التى يحتاج إليها فى اليوم لنفقات البيوت. وأول ما رأيت للدراهم ذكرا بمصر فى أيام الحاكم بأمر الله أحد خلايف الفاطميين، قال الأمير المختار عز^(٢) الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى عفى الله عنه فى تاريخه الكبير: " وفى شهر ربيع الأول، يعنى من سنة سبع وتسعين

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى ك فقط (١٤٢) .

(٢) فى و " بن " ، والرسم المثبت هنا من م (١٣٥) . والمسبحى من المؤرخين المكثرين فى العهد الفاطمى، وقد توفى سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) . ويقال إن مؤلفاته بلغت ثلاثين كتابا، وإن كتابه المشار إليه هنا يقع فى ست وعشرين ألف صفحة، وإنه لم يعد لهذه الكتب وجود، ما عدا الجزء الأربعين من كتابه التاريخ الكبير بمكتبة الإسكوريال بإسبانيا، وما عدا اقتباسات مبعثرة فى كتب المؤرخين كابن منجب، وابن ميسر، وابن خلكان، والمقرئى. راجع حسن إبراهيم حسن (الفاطميون فى مصر، ص ٨) .

وثلاثمائة، تزايد أمر الدراهم القطع^(١) والمزايدة، فبيعت أربعة وثلاثون درهماً بدينار. ونزع^(٢) السعر، واضطربت أمور الناس، فرفعت الدراهم، وأنزل بعشرين صندوقاً من بيت المال فيها دراهم جدد، ففرقت فسى الصيارف، وقرئ سجل برفعها وألا يتعامل بها. وأنظر من فى يده شئ منها ثلاثة أيام، وأن يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب.

فاضطربت الناس، وبلغت [الدراهم^(٣) القطع والمزايدة] أربعة دراهم بدرهم [من الجد]، وتقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً بدينار. ثم اشتهر فى كتب (ص ٢٠ب) الأخبار [أن الفضة صارت تضرب نقوداً بمصر، وأنها سميت [بين الدراهم] باسم^(٤)] المسودة، وبها كانت

(١) تقدمت الإشارة إلى هذين النوعين من الدراهم فسى ص ١٤ - ١٥ هنا، وقد تناولهما (Sauvair: Op. Cit. 11. Pp. 164, 193 - 194, 204 - 206, 276) بوضوح قيمة كل منهما فى النقود الإسلامية، وخلصته أن الدراهم القطع - أو المقطعة - كانت كمدلوها اللفظى دراهم غير كاملة، لذهاب جزء منها بسبب القطع. وكانت تلك الدراهم تقبل فى معاملات الأفراد حسب الوزن، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها دائماً، وتسميها الدراهم الغلّة. أما الدراهم المزايدة - وصحتها الزائدة - فهى التى كانت تزيد عن الدراهم الجيدة فى الحجم، وليس فى الوزن .

(٢) فى و " نزع " ، والرسم المثبت هنا من م (٣٥ أ) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين مما تقدم . انظر ص ١٥ (سطر ٨) .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين لتكميل العبارة .

معاملة أهل مصر والقاهرة والإسكندرية. [وتعرف بنقد^(١) مصر. وأدركت الإسكندرية] وأهلها لا يتعاملون إلا بها، ويسمونها الورق. واختلفت آراء خلفاء مصر وملوكها فى مقدار الدرهم اختلافا لم ينضبط إلى الآن^(٢) .

وحقيقة الدراهم السود النحاس فيه اليسير^(٣) من الفضة، ولم تزل المعاملة بها حتى استولت دولة بنى أيوب على مملكتى مصر والشام ، وتملك منهم محمد الكامل بن العادل . ففى ذى القعدة من سنة ثنتين وعشرين وستمئة أمر [الكامل] بضرب دراهم مستديرة، وتقدم ألا يتعامل الناس بالدراهم المصرية العتق، وهى التى يدعونها أهل مصر الورق. فهجر الناس [الدراهم] الورق، وتركوا التعامل بها، إذ الرعية على دين راعيها. وكانت الدراهم الكاملة - وهى التى أذركنا الناس يتعاملون بها - ثلثيها فضة والثلث نحاس، يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهما من النحاس .

(١) انفردت م (٣٥ أ) بالعبرة الواردة هنا بين الحاصرتين، من دون النسختين الأخيرين و ، ك .

(٢) لم يشير المقرئ إلى نهاية اقتباسه من المسبج، على أنه من المعقول أن يكون آخره حيث الإشارة إلى ذلك بالمتن، إذ توفى المسبج سنة ٤٢٠هـ - (١٠٢٩م) .

(٣) فى و " ايسر من الفضة " ، والرسم المثبت هنا من م (١٣٠) ، وكذلك ك (٤٢ ب) ، وهو معدل لجوهر المعنى تماما، على أنه هو الصحيح، إذ الدراهم النقرة - وليست السوداء - هى التى كانت دأب فيها نسبة الفضة على النحاس فى معظم العصور. أنظر القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦ - ٤٦٧) .

وراجت هذه الدراهم فى بقية دولة بنى أيوب، ثم فى أيام مواليتهم الأتراك بمصر والشام رواجاً حتى قل الذهب بالنسبة إليها . وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها، وإليها تنسب عامة أثمان المبيعات وقيم الأعمال، وبها يؤخذ خراج الأرضين وأجرة المساكن وغير ذلك.

و [كان] الدرهم ثمانية عشرة خروبة، [و] الخروبة ثلاث قمحات، والمثقال أربع وعشرون خروبة. والصنجة تتفاوت بمصر والشام، فتنقص كل مائة مثقال شامى مثقالاً وربما بمصر، وكذلك الدراهم.

وأما الفلوس فإنه لما كان فى المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه، احتاج الناس من أجل ذلك فى القديم والحديث من الزمان إلى شئ سوى نقدى الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات، لم يسم أبداً على وجه الدهر ساعة من نهر فيما عرف من أخبار الخليفة نقداً، لا ولا أقيم قط بمنزلة أحد النقدين. واختلف مذاهب البشر وآراؤهم فيما يجعلونه بإزاء تلك المحقرات، فلم يزل بمصر والشام (١٢١) وعراقى العرب والعجم وفارس والروم فى أول الدهر وآخره ملوك هذه الأقاليم، لعظمتهم وشدة بأسهم ونصرة ملكهم، وكثرة شأوهم وخنزوانة سلطانهم، يجعلون بإزاء هذه المحقرات نحاساً يضربون اليسير منه قطعاً صغاراً تسميها العرب فلوساً^(١)

(١) ليس لفظ الفلوس - والمفرد فلس - عربى الأصل، بل هو لفظ يونانى معرب، وقد أخذته اليونانية قبلاً من اللفظ اللاتينى (follis)، ومعناه كيس النقود، ويقال مثل ذلك بصدد لفظ الدرهم، فقد أخذته العرب من لفظ (diram) فى الفارسية، =

لشراء ذلك ، ولا يكاد يوجد من هذه الفلوس إلا النزر اليسير ، مع أنها لم تقم أبداً في هذه الأقاليم بمنزلة أحد النقدين قط. وكان سبب ضربها بمصر في أيام الكامل الأيوبي - بعد أن لم تكن - أن امرأة تعرضت لخطيب الجامع بمصر ، وإذ ذاك أبو الطاهر المحلى ، تستفتيه : " أيحل شرب الماء أم لا ؟ " فقال : " يا أمة الله ! وما يمنع من شرب الماء؟ " فقالت : " إن السلطان ضرب هذه الدراهم ، وإنى أشتري القربة بنصف درهم ومنها ومعى درهم ، فيرد [السقاء] على نصف درهم ورقا ، فكأنى اشتريت منه ماء ونصف درهم بدرهم " . فأنكر [أبو الطاهر] ذلك ، واجتمع بالسلطان وتكلم معه في ذلك ، فأمر بضرب الفلوس.

ولقد كان ببغداد ، التي أربت عمارتها على عامة الأمصار ، يجعل بإزاء غالب المبيعات عوضاً منها الخبز. يوضح ذلك ما علقته من رسالة الشيخ الرئيس أبي القاسم بن أبي زيد إلى بعض إخوانه يخبره بأخبار البلاد التي سلكها وما هي عليه ، وذلك عند سفره من مصر وحصوله ببغداد ، في سنة بضع وأربعمائة. قال بعد صدر طويل : أما الخبز فيبرز عجينه على باب الدكان ، فيجتمع عليه عدد كثير من الذباب ، ثم يخبزونه في تناسير قد أحميت بالدخان ، وبيالغون في تخفيف^(١) الزغفان ، ويتعاملون به في

= وهو يوناني الأصل ، وكذلك لفظ الدينار ، وأصله (denarius) في اللاتينية .

أنظر (Enc. Isl Arts. Fals, Dirham, Dinar) .

(١) في ر " تخفيف " ، والرسم المثبت هنا من م (١٣٦) .

الأسواق، ويقيمونه مقام الدرهم [فى الإنفاق]، وينتقدونه نقداً قد اصطاحوا عليه. وجعلوا لذلك قانونا يرجعون إليه: فيردون الثلوم والمكرج^(١).

كما يرد الدرهم الزائف والدينار المبهرج^(٢)، ويشترون به أكثر المأكولات والمشمومات، [ويدخلون^(٣) به الحمامات]، ويأخذونه النباز والخمار، ولا يرده البزاز ولا العطار. وللرغيف السميذ على غيره صرف مقدر، وحساب عندهم معلوم محرر، ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين رغيفا بقيراط^(٤). وكتبت من خط حافظ المغرب (ص ٢١ ب) محمد بن سعيد فى كتابه الذى سماه " جنا النحل وحيا المحل " ما نصه: " فأخرج لى أحد هؤلاء التجار - يعنى^(٥) تجارا رآهم ببغداد لما رحل إليها - ورقة فيها خطوط بقلم الخطا^(٦)، وذكر أنها من ورق التوت فيها لين ونعمة، وأن هذه

(١) المكرج من الخبز هو الذى فسد وعلته خضرة. (محيط المحيط).

(٢) جاء فى محيط المحيط، أن "المبهرج الباطل والردئ، والدرهم الذى فضته رديئة"، فيكون الدينار المبهرج مثل ذلك. أنظر أيضا ص ٦٢، (حاشية ١)، حيث ورد لفظ "المبهرج" للدلالة على نوع من النقود الرديئة.

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٦ أ).

(٤) القيراط هنا نقد مقداره جزء من عشرين من المثقال، وهو من مستحدثات الخليفة عبد الملك بن مروان. أنظر (Enc. Isl. Art. Kirat).

(٥) فى و ' يعنى تجارهم ببغداد'، والصفة المثبتة هنا من م (٣٦ ب).

(٦) الخطا بلاد المغول (Catghay)، وهى الجزء الغربى من بلاد الصين، وكانت عاصمتها جالقى بالقى، ومن بلاد الخطا هذه كانت إغارات جنكزخان ومن وليه من خانات المغول، انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٨٣ - ٤٨٧، وكذلك

(Enc. Isl. Art. Kara Kgitai) .

الورقة إذا احتاج إنسان في خان بالق^(١) من بلاد الصين لخمسـة دراهم دفعها فيها، وأن ملكها يختم لهم هذه الأوراق، وينتفع بما يأخذ بدلا عنها، انتهى^(٢).

وأخبرني من لا أتهم أنه شاهد في بعض مدن إقليم الصعيد أهلها يتعاملون في محقرات المبيعات بالكودة^(٣)، وتسمى بمصر الودع،

(١) في و، وكذلك ك (٤٣ب) 'إذا احتاج انسان بايع من بلاد الصين'، والرسم المثبت هنا من م (٣٦ب)، حيث وردت 'خان بالق' بالعين بدل القاف. هذا وكانت خان بالق عاصمة الصين، وهي غير جالق بالق الواردة في الحاشية السابقة. أنظر الفلقتندي (صبح الأعشى، ج٤، ص ١٧٩ - ١٨٠)، و_____ ذلك (Enc. Isl. Art. Khan Balik)

(٢) وصف ابن بطوطة في كتاب رحلته المعروف (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - Defrémery - ج٤، ص ٢٥٩-٢٦٠) هذا الورق وصفًا دقيقًا، ونصه: 'وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصل ببلادهم من (ص ٢٦٠) ذلك بسيكولة قطعاً ٠٠٠٠، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها قدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، بباء موحدة وألف ولام مكسور وشين معجم مسكن وتاء معلولة، وهو بمعنى الدينار عندنا. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جديداً ودفع تلك، ولا يعطى على ذلك أجره ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى إنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه، ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما أراد'. أنظر أيضاً _____ (Gibb : Ibn Battuta, p. 369. N. 4) لشرح لفظ بالشت.

(٣) عرف المقرئزي (شذور العقود - Tychsen - ، ص ٥٠) الكودة بأنها الودع الذي يستخرج من البحر

كما يتعامل أهل مصر الآن بالفلوس. وأخبرني ثقة أن ببعض بلاد الهند يشتري الكثير من المأكّل بالعفص والبلح. وأدركت أنا والناس [من] أهل ثغر إسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والحوامض والبقول ونحو ذلك كسر الخبز، ولشراء ما يراد منه، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة. وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببعض الدجاج وبخال الدقيق، وبردى مشاق الكتان، إلى آخر^(١) هذه الحوادث. وكل هؤلاء إنما يتخذون ما تقدم ذكره لشراء الأمور الحقيرة فقط، ولم يجعل أحد منهم شيئاً من ذلك نقداً يحزن ، ولا يشتري به شئ جليل ألبتة.

ولما ضربت الفلوس كما مر^(٢) في أيام الكامل تتابع^(٣) الملوك في ضربها حتى كثرت في الأيدي ، وما زالت العامة تتعنت فيها لما يداخلها من القطع المخالفة للقطع التي يأمر السلطان بالتعامل بها، فتقدم الولاية بصلاح ذلك. وكانت الفلوس أولا تعد في الدرهم الكامل ثمانية وأربعون فلساً ، ويقسم الفلوس أربع قطع تقام كل قطعة مقام فلس، يشتري بها ما يشتري بالفلوس، فيحصل بذلك من الرفق لذوى الحاجات ما لا يكاد يوصف. وتمادى

(١) فى و ، وكذلك ك (٤٣ ب) 'أيسر' ، وفى م (٣٦ ب) 'أمس' .

(٢) فى و 'كما ترى' ، والصيغة المثبتة هنا ممن م (٣٦ ب) .

(٣) فى و 'لم يتابع' ، والصيغة المثبتة هنا من م (٣٦ ب) .

الأمر على ذلك إلى بعد الخمسين والستمائة^(٤) من الهجرة ، فسول بعض العمال لأرباب الدولة حب الفائدة، وضمن ضرب الفلوس بمال قرره على نفسه، وجعل كل فلس يزن مثقالا ، والدرهم (ص ١٢٢) يعد أربعة وعشرين فلسا. فثقل ذلك على الناس، وأنكاهم موقعه لما فيه من الخسارة، لأنه صار ما يشتري بدرهم هو ما كان قبل يشتري بنصف درهم، ثم توطنت نفوس الناس على ذلك، إذ هم أبناء العوائد. وكانت الفلوس مع ذلك لا يشتري بها شئ من الأمور الجليلة، وإنما هي لنفقات البيوت، ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها.

فلما كانت سلطنة العادل كتبغا، وأكثر الوزير فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي من المظالم، وجارت حاشية السلطان ومما ليكه على الناس، وطمعوا في أخذ الأموال والبراطيل^(٥) والحمايات، وضربت الفلوس ، توقف الناس فيها لخفتها. فنودي في سنة خمس وتسعين وستمائة أن توزن بالميزان ، وأن يكون الفليس زنة درهم، ثم نودي على الرطل منها بدرهمين، وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزت الفلوس والمعاملة بها وزنا لا عددا .

(٤) في جميع النسخ المتداولة هنا " والسبعماية" ، وهو غلط يبرهن عليه ما يلي بهذه الصفحة (سطر ١١) ، حيث ذكر المقرئ ما حدث في سلطنة العادل كتبغا (٦٩٤هـ - ٦٩٦هـ ، ١٢٩٤م - ١٢٩٦م) من خلل في النقد ، وذلك قبل سنة سبعماية، هذا وقد أدرك ناسخ فقط (١٤٤) تلك الغلطة، فأشار إليها بالهامش بالجملة الآتية: " لعله ستمائة" .

(١) أنظر ص ٣٧ ، حاشية ٤ .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق، وتولى محمود [بن على الأستادار^(١)] أمر الأموال السلطانية ، شره إلى الفوائد وتحصيل الأموال، فكان مما أحدث الزيادة الكبيرة [من الفلوس^(٢)] ، فبعث إلى بلاد فرنجة لجلب النحاس الأحمر، وضمن دار الضرب بالقاهرة بجملة من المال، ودام ضرب الفلوس بها مدة أيامه، واتخذ بالإسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس. فكثرت [الفلوس] بأيدة الناس كثرة بالغة، [و] راجت رواجاً صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد. وقلت الدراهم لأمرين : أحدهما عدم ضربها ألبته، والثانى سبك ما بأيدي الناس منها لاتخاذها حلياً منذ تفنن أمراء السلطان وأتباعهم فى دواعى الترف، وتأنقهم فى المباهاة بفاخر الزى وجيليل الشارة. ووجد مع ذلك الذهب بأيدي الناس، بعد أن كان لا يوجد مع كل أحد ، لكثرة ما كان يخرجه الظاهر [برقوق] فى إنعام على أمراء الدولة ورجالها، وفى نفقات الحروب والأسفار ، وفى الصلات زمن الغلاء . فمات الظاهر وللناس ثلاثة نقود أكثرها الفلوس، وهو النقد الرايغ الغالب، والثانى الذهب وهو أقل وجداناً^(٣) من الفلوس ، وأما الفضة (ص ٢٢ب) فقلت حتى بطل التعامل بها لعزتها، وكان يعطى فى الدينار الذهب منها

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من (De Sacy: Op. Cit. P. 46) . أنظر أيضا أبا المحاسن: النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج٦، ص ٣٨٠، و

(٢) (Wiet: Les Biographies du Manhal Safi. P. 245, No. 1671.) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٧ أ) .

(٣) كذا فى و .

[إلى] ثلاثين درهما . ثم كثر الذهب بأيدي الناس حتى صار مع أقل السوق، وعظم رواج الفلوس، وكثرت كثرة بالغة حتى صارت المبيعات وقيم الأعمال كلها تنسب إلى الفلوس خاصة .

وبلغ الذهب كل مثقال منه إلى مائة وخمسين من الفلوس، [والفضة كل^(١) زنة درهم من المضروب منها بخمسة دراهم من الفلوس] التي كل درهم يعد أربعة وعشرين فلسا، وبلغ المثقال من الذهب بثغر الإسكندرية ثلاثمائة درهم من الفلوس، فدهى الناس بسبب ذلك داهية أذهبت المال، وأوجبت قلة الأقوات ، وتعذر وجود المطلوبات لاختلاف النقود، وإنه ليخشى من تمادى ذلك أن يحول حال [أهل] الإقليم،^(٢) ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ سورة الرعد الآية (١١).

○○○○○○

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٧ ب) .

(٢) كتب (De Bouard: Sur Lévolution Monétaire de L'Egypte Médiévale)

مقالة قيمة بالفرنسية فى موضوع النقود الإسلامية، وهى منشورة فى

(Rev. Soc. Econ. Polit. Statis. Legis. Xxx. Pp. 427 - 459)

فصل

فلم يذكر أقسام الناس وأصنافهم

وبيان لجمال من أحوالهم وأوصافهم

أعلم حرسك الله بعينه التي لا تنام ، وركنه الذي لا يُرام ، أن الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام : القسم الأول [أهل] الدولة ، [و] القسم الثانى أهل اليسار من التجار ، وأولى النعمة من نوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البزّ ، ويلحق بهم أصحاب المعاش ، وهم السوقة ، [و] القسم الرابع أهل القلح ، [وهم] أهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء ، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السّؤال الذين يتكفّفون الناس ويعيشون منهم .

فأما القسم الأول : وهم أهل الدولة ، فحالهم فى هذه المحن^(١) على ما يبدو لهم . ولن لا تأمل عنده ، ولا معرفة بأحوال الوجود له ، أن الأموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن ، باعتبار ما يتحصل لهم

(١) فى و ، وفى لك أيضاً (١٤٥) " هذا المحل " ، والصيغة المثبتة هنا من م (١٣٨) .

من خراج الأراض، فإن الأرض التي كان مبلغ خراجها من قبل هذه الحوادث مثلا عشرين ألف درهم [صار الآن^(١) خراجها مائة ألف درهم]. وهذا الظن ليس بصحيح (ص ١٢٣)، بل قلت أموالهم بالنسبة إلى ما كانت عليه أموال أمثالهم من قبل: وبيان ذلك أن العشرين ألف درهم فيما سلف كان مالها ينفق منها فيما أحبّ واختار، ويذخر منها بعد ذلك ما شاء الله، لأنها كانت دراهم، وهي قيمة ألف مثقال من الذهب أو قريب منها. والآن إنما يأتيه بدل تلك المائة ألف درهم فلوس، هي قيمة ستمائة وستة وستين مثالا من الذهب، ينفق ذلك فيما يحتاج إليه في اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه، وفيما لا بد له من كسوته وكسوة عياله، وما تدعو إليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره، مما كان^(٢) يشتريه قبل هذه المحن بعشرة آلاف من الفضة ونحوها. ولولا تساوى العالم^(٣) من الخاصة والعامة بتسفاوت [ما بين] سعر المبيعات الآن وبين سعرها قبل هذه المحن لبينا ذلك، ولا بد من الإلماع بطرف منه إن شاء الله تعالى : فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم، ونصحوا أنفسهم، لعلموا أنهم لم ينلهم ربح ألبتة بزيادة الأطنان، ولا بغلاء سعر الذهب الذي كان أصل هذا البلاء، وسبب هذه المحن، بل هم خاسرون،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٨ أ) .

(٢) في جميع النسخ المتداولة هنا " ما كان " .

(٣) في جميع النسخ المتداولة هنا " العم " .

وأن ذلك من تلبيس مباشريهم لنيلهم ما يحبون من أعراضهم،
﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ سورة فاطر الآية (٤٣).

وأما القسم الثانى، وهم مياسير التجار وأولو النعمة والترف، فإن
التاجر إذا استفاد مثلاً ثلاثة آلاف درهم فى بضاعته، فإنما يتعوّض عنها
فلوساً أو عشرين مثقالاً من الذهب، ويحتاج إلى صرفها فيما لا غنى له عنه
من مؤونته ومؤونة عياله، وكسوته وكسوة عياله. فهو لو تأمل لا تضح له أنه
لما كان أولاً يستفيد فى مثل هذه البضاعة ألف درهم مثلاً، أنها تغنى عنه
فى كلفته أكثر مما تغنى عنه هذه الثلاثة آلاف درهم من الفلوس بكثير.
فالبائس لغباوته يزعم أنه استفاد، [و] فى الحقيقة إنما خسر، ولسوف
عما قليل ينكشف له الغطاء، ويرى ما له قد أكلته النفقات، وأتلفه اختلاف
النقود، فيعلم فساد ما كان يظن، وكذب ما كان يزعم،
﴿وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سورة الرعد الآية (٣٣).

وأما القسم الثالث وهم أصحاب البزّ وأرباب المعاش، فإنهم فى
(ص ٢٣ ب) هذه المحن يعيشون مما يتحصّل لهم من الربح، فإن أحدهم لا
يقنع من الفوائد إلا بالكثير جداً، وهو بُعِيد ساعات من يومه ينفق ما أكتسبه
فيما لا بدّ له منه من الكلف، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته، ويقنع كما
قال الأول.

على أنتى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا

وأما القسم الرابع، [وهم] أصحاب الفلاحة والحرث، فهلك معظمهم لما قدّمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة رى الأراضى. وفيهم من أثرى، وهم الدين ارتوت أراضيهم فى سببى المحل، فنالوا من زراعتها أموالاً جزيلة عاشوا بها هذه الأزمنة، على [أن] فيهم من عظمت ثروته، وفخمت نعمته، ونال ما أربى على مراده، وزاد على [ما] أمّله، ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة البقرة الآية (٢٤٥).

وأما القسم الخامس، فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم، ومن يلحق بهم من الشهود^(١)، والكثير من أجناد الحلقة، ومن شابهم ممن له عقار أو جار من معلوم سلطان أو غيره، فهم ما بين ميت أو مشتهى الموت، لسوء ما حلّ بهم. فإن أحدهم إذا أتته مائة درهم مثلاً فإن ما يأخذ عنها فلوساً أو ثلثي مثقال^(٢)، ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهما من الفضة.

(١) الشهود جمع شاهد، وهو فى مصطلح الدولة المملوكية الموظف الذى كان عمله أن يشهد بمتعلقات الديوان المستخدم به نقياً وإثباتاً، وهو أحد الذين جمعهم القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٦) تحت باب كتاب الأموال. أنظر أيضاً المقرئى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٩٣، ٦٦٧، ٩٣٧، ١٠٤٦).

(٢) فى و "فإنما يأخذ منها فلوساً ويكنى مثقال"، وفى ك (١٤٦) "فإنما يأخذ منها فلوساً أو ثلثي مثقال"، ويظهر أن سبعة م (١٣٩) المثبته هنا بالمتن هى الأقل غموضاً.

فلحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة، وساءت أحوالهم ،
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ سورة الشورى
الآية (٣٠) .

وأما القسم السادس، فهم أرباب المهن والأجراء والحمالين والخدم
والسُّوَّاسِ والحاكة والبنائة والفعلة ونحوهم، فإن أجرهم تضاغت تضاغفاً
كثيراً، إلا أنه لم يبق منهم إلا القليل لموت أكثرهم، بحيث لم يوجد منهم
الواحد إلا بعد تطلّب وعناء. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ سورة الحج الآية (٤١) .

وأما القسم السابع ، فهم أهل الخصاصة والمسكنة ، ففنى معظمهم
جوعاً وبرداً ، ولم يبق منهم إلا أقل من القليل. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْأَلُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية (٢٣) .

ص ٢٤ أ) فصل

فأذكر نبيذ من السحار ههنا الزم

وإيراص طرف من ألتبار ههنا الملتج

—

أعلم أسعدك الله سعادة الأبد، وآتاك فوز السرمد، أن الذي استقر أمر
الجمهور بإقليم مصر عليه في النقد الفلوس خاصة ، يجعلونها عوضا عن
المبيعات كلها من أصناف المأكولات وأنواع المشروبات وسائر المبيعات؛
ويأخذونها في خراج الأرضين وعشور أموال التجارة، وعمامة مجابى
السلطان، ويصيرونها قيما عن الأعمال جليلها وحقيرها، لا نقد لهم سواها
ولا مال إلا إياها، على أن كل قنطار منها وهو مائة رطل مصرية
[وزنا]^(١) بستمائة درهم [نقدا]^(٢) ، حسابا عن كل رطل وهو زنة
[مائة وأربعة]^(٣) وأربعون درهما وزنا ستة دراهم، وعن كل درهم منها
أوقيتان زنتهما [أربعة وعشرون درهما - ، بدعة أحدثوها وبلية ابتدءوها،
لا أصل لها في ملة نبوية، ولا مستند لفعالها عن طريقة شرعية، ولا شبهة

(١) (٢٠١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح . أنظر ما يلي ص ٧٧ ، سطر ١ .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٩) ، وهو وارد في ك أيضا (١٤٦) .

لمبتدعها فى الأقتداء بفعل أحد ممن غبر، ولا ائتناسه^(١) بقول واحد من البشر، سوى شئ نشأ عنه زهاب بهجة الدنيا وزوال زينتها، وتلاف الأموال وفساد زخرفها، ومصير الكافة إلى القلة، وشموز الفاقة للجمهور مع الذلة، «ليقضى الله أمرا كان مفعولا» سورة الأنفال الآية (٤٢).

وأما أسعار المبيعات فإن الذهب انتهى بحاضرة القاهرة وربعها^(٢) كل مثقال منه إلى مائة وخمسين درهما من الفلوس، وبلغ بئغر الإسكندرية كل مثقال إلى ثلاثمائة درهم فلوسا، وانتهى الأردب من القمح إلى أربعمائة وخمسين فلوسا غير الكلفة: وهى عن السمسرة^(٣) عشرة دراهم، والحمولة سبعة دراهم، والغربلة ثلاثة دراهم، وأجرة الطحن ثلاثون درهما، ويتحصل عن الأردب قمحا نقيًا خمس وبيات فقط، وينقص منه سدسه غلتا، فإذا لا يتهىأ كل أردب إلا من حساب [ستمائة^(٤) درهم فلوسا]. وبلغ كل

(١) فى و " انتشابه" والرسم المثبت هنا من م (٣٩ب).

(٢) فى و " وربعها " ، والرسم المثبت هنا من م (٣٩ب).

(٣) قدر المقرزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٨٨ - ٨٩) قيمة السمسرة عامة بأقل من هذا، وذكر أن السلطان الملك الناصر محمد ألقى سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) ما يسمى بأسم نصف السمسرة ، ونصه: " ومما أبطل أيضا نصف السمسرة، وهو عبارة عن أن من باع شيئا من الأشياء فإنه يعطى أجرة الدلال على ما تقرر من قديم ، عن كل مائة درهم درهمن، فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته ، وتصير الغرامة على البائع، فتضرر الناس من ذلك، وأوذوا فلم يغيثوا ، حتى ابطل ذلك السلطان".

(٤) موضع ما بين الحاصرتين بياض فى و ، وقد أضيف لفظ " ستمائة" من م (٣٩ب)، وهو فى ك أيضا (١٤٧).

أردب من الشعير والبقول ما ينيف عن ثلاثمائة [درهم] سوى الكلف .
والأردب من البسلة ثمانمائة درهم ، ومن الحمص خمسمائة درهم ، والرأس
الواحد من البقر بمائة مثقال من الذهب - عنها خمسة عشر ألف درهم من
الفلوس - (ص ٢٤ ب) ، والرطل الواحد من اللحم البقري النيئ
بسبعة [دراهم ^(١)] فلوسا ، والرطل الواحد من الضأن بخمسة عشر درهما ،
والطائر الواحد من الدجاج بمائة درهم كل طائر منها - أي ^(٢) عشرين درهما
فلوسا ، والطائر الواحد من الأوز من مائتي درهم كل طائر منها إلى خمسين
درهما [فلوسا ^(٣)] ، والرأس الواحد من الغنم الضأن بما ناف عن ألفي درهم
فلوسا . وأبيع الجمل بسبعة آلاف فلوسا ، والقدح الواحد من لب اليقطين
بمائة درهم وعشرين درهما فلوسا ، [والقدح ^(٤) من الأرز بخمسة عشر درهما
فلوسا] ، والأردب الواحد من بذر الجزر بخمسمائة درهم فلوسا ، وكل قدح
من بذر الفجل بمائة وخمسين درهم فلوسا ، وكل قدح من بذر اللفت
ثلاثمائة درهم فلوسا ، وكل قنطار من الشيرج غير كلفه بألف ومائتي درهم
فلوسا ، [والبطيخة الواحدة ^(٥) في أوان البطيخ بعشرين درهم فلوسا] ،
وكل رطل من العنب في أوانه بأربعة دراهم ، وكل قنطار من القرع بمائة
درهم فلوسا ، والسكر كل رطل إلى سبعين درهما [فلوسا ^(٦)] ، وزيت

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٩ ب) ، وهو أيضا في ك (١٤٧ أ) .

(٢) هذا اللفظ وارد في جميع النسخ المتداولة في هذه الحواشي بصيغة " إلى " .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٩ - ٤٠ أ) .

(٤) (٤٠ ، ٦٠) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٣٩ ب - ٤٠ أ) .

الزيتون كل قنطار منه بخمسائة وخمسين درهما [فلوسا^(١)] ، والثوب القطن بألف وخمسائة درهم فلوسا ، والذراع الواحد من ثياب الكتان الذى لم يتصر ببضعة عشر درهما ، والبيضة الواحدة من بيض الدجاج بنصف درهم فلوسا ، والليمونة الواحدة بثلاثة دراهم فلوسا ، والرطل الواحد من الكتان الذى [لم^(٢)] يمشق بعشرين درهما فلوسا .

وبلغ الإسكندرية وتروجة كل قدح واحد من القمح إلى أربعين درهما فلوسا ، ومن الشعير ثلاثين درهما ، والرطل من الخبز عشرة دراهم ، والرطل من لحم الضأن ستين درهما فلوسا ، [والطائر المتوسط^(٣)] من الدجاج ببضعة وخمسين درهما فلوسا ، والبيضة الواحدة من بيض الدجاج بدرهمين فلوسا ، والأوقية من الزيت بأربعة دراهم فلوسا .

وبلغ كل قدح من بذر الرحلة بالقاهرة إلى ستين درهما فلوسا وسبعين ، والرطل الواحد من الكمثرى إلى بضعة وخمسين درهما ، والقنطار من الشيرخشك^(٣) إلى ثلاثين ألف درهم [فلوسا] ، والقنطار من

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٤٠) ، حيث ورد أن ثمن الرطل من هذا النوع من الكتان 'بضعة عشر درهما' ، وليس عشرين كما هنا .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من م (١٤٠) ، وهو فى ك أيضا (٤٧ب) .

(٣) ترجم (Dozy: Supp. Dict. Ar) هذا اللفظ الفارسي الأصل إلى (Sorte de manne) ومعناه نوع من المن أو البلسم ، ولعل المقصود به نوع من الأدوية أو الترياقات المستعملة فى تلك العصور .

الترنجبين^(١) إلى خمسة عشر ألف درهم فلوسا، والزهرة الواحدة من النيلوفر^(٢) إلى درهم فلوسا، والخيارة الواحدة إلى درهم [فلوسا^(٣)] ونصف. وأبيع الفروج الواحد بسبعة وثلاثين درهما فلوسا، وأبيع فى تركة ملوطتان^(٤) غسيلتان من قطن بألفى درهم ومائتى درهم وأربعين [درهما^(٥)] فلوسا، وبقية المبيعات بهذه النسبة. فمن نظر إلى أثمان المبيعات بأعتبار (ص ١٢٥) الفضة والذهب لا يجدها قد غلت^(٦) إلا شيئا يسيرا، وأما بأعتبار

(١) الترنجبين - ويقال الترنجيل أيضا - لفظ فارسى الأصل، وهو نقلا عن محيط المحيط، " ظل أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر، وأكثر وقوعه على الحاح (كذا)، ويجمع كالمن، وأجوده الأبيض، [وهو] فارسى، معناه غسل رطب، وهو فى الخواص قريب من خيار الشنبر"، هذا وقد شرح (Dozy: Supp. Dict. Ar) ذلك اللفظ بالآتى، ونصه : (genét d'Espagne, à fleurs jaunes, odorantes) ، أى عشب ذو زهرة أصفر له رائحة، وموطنه إسبانيا.

(٢) النيلوفر لفظ أعجمى - ويقال النينوفر أيضا - وهو ضرب من الرياحين، ينبت فى المياة الراكدة، له أصل كالجزر، وساق أملس يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه الماء أورق وأزهر، وإذا بلغ يسقط عن رأسه ثمر داخله بزر أسود (محيط المحيط) ، ويقابله فى الإنجليزية (Nenuphar)

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من ك فقط (٤٧ب) .

(٤) الملوطة - والجمع ملايط وملوطات - كلمة يونانية الأصل، وقد تسربت إلى العربية عن طريق اللغة القبطية، وهى حسبما ورد فى (Dozy: Dict. Vêtements.) (PP. 412 - 413) الجبة تلبس فوق الفرجية (un ample vêtement de dessus) أو قميص واسع الأكمام، وكان من ملايس المماليسك بمصر (le vêtement de dessous des Mamlouks..., les manches trée- amples) .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٤٠ أ) .

(٦) فى و " قلت " ، والرسم المثبت هنا من م (٤٠ ب) .

ما دهم الناس من كثرة الفلوس فأمر لا أشنع من ذكره، ولا أفظع من هو له، فسدت به الأمور، واختلت به الأحوال، وآل أمر الناس بسببه إلى العدم والـزوال، واشرف من أجله الإقليم على الدمار والأضمحلال، ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ سورة آل عمران الآية (٤٠).

فصل

فيما يزيل عن العباد هذا الداء
ويقوم لمرضى الزمان مقام الدواء

—

وإذ قد تقدم من القول بيان الأسباب التي حصلت منها هذه المحن، فبقي أن يتعرف من فتق الله ذهنه، وأزال غشاء بصره، كيف العمل في إزالة ما بالناس من هذه البليات، لتعود أحوالهم إلى مثل ما كانت عليه من قبل. فنقول: أعلم أرشدك الله إلى صلاح نفسك، وألهمك مرشد أبناء جنسك، أن النقود المعتبرة شرعا وعقلا وعادة إنما هي الذهب والفضة فقط، وما عداهما لا يصلح أن يكون نقدا. وكذلك لا يستقيم أمر الناس إلا بحملهم على الأمر الطبيعي الشرعي في ذلك، وهو تعاملهم في أثمان مبيعاتهم وإعواض قيم

أعمالهم بالفضة والذهب لا غير، وذلك يسير على من يسره الله له. وهو أن الفضة الخالصة - التي لم تضرب ولم تغش - سعر كل مائة درهم منها خمسة مثاقيل من الذهب ، وتحتاج بدار الضرب في ثمن نحاس ومكس للسلطان وثمان خطب وأجرة صناع ونحو ذلك - بحكم سعر هذا الوقت - إلى ربع دينار، فتصير بهذا العمل وزن مائة وخمسين درهما معاملة، [عنها من الذهب كما مر آنفا خمسة^(١) مثاقيل وربع مثقال] . فبحكم ذلك يكون صرف^(٢) كل مثقال من الذهب الآن يؤخذ فيه عن صرفه من النحاس الأحمر المضروب قطعا المسمى فلوسا ثلاثة وعشرون رطلا وثلاث رطل، حسابها بزعمهم مائة وأربعون درهما فلوسا ، وهو صرف الدينار بالفلوس لعهدئذ^(٣) .

فإذا وفق الله تعالى من إليه الرعية أن يأخذ [ذلك القدر] في ضرب الفضة المعاملة ، فإنه يؤول^(٤) أمر الناس إن شاء الله تعالى إلى زوال هذا الفساد، وعودهم إلى رجوع أسعار المبيعات وقيم الأعمال على ما كانت عليه قبل هذه المحن. فإنه تبين كما ذكر أن المثقال من الذهب يصرف (ص ٢٥ب) بأربعة وعشرين درهما من الفضة المعاملة ، ويؤخذ بالأربعة

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من ك فقط (١٤٨) ، ويلاحظ أن صيغة م هنا (٤٠ب) ينقصها عبارة " من الذهب" .

(٢) في و " ضرب " ، والرسم المثبت هنا من م فقط (٤٠ ب) .

(٣) في و " لعهدته " ، أو " لعنته " والرسم المثبت هنا من م فقط (١٤١) .

(٤) في و " لا يول " ، والرسم المثبت هنا من م فقط (١٤١) .

والعشرين درهما [من] الفضة ثلاثة وعشرون رطلا وثلاث رطل من الفلوس التي تعد في كل درهم من الفضة المعاملة منها مائة وأربعين فلسا، تصرف في محقرات المبيعات ونفقات البيوت، فيعظم النفع بها، وتنحط الأسعار، وعمّا قليل لا تكاد توجد لضرب الناس لها أوانى، وفي ذلك من صلاح^(٤) الأمور واتساع الأحوال، ووفور النعم وزيادة الرضاة، ما لا حد له، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ سورة البقرة الآية (٢١٦) .

♦♦♦♦

فصل

في بيان مآل هذا التغيير

العائد نفعه على اللجم الخفير

أعلم جملك الله بالمناقب ، وصانك من شين المعاييب، أن من ملكته العوائد، واسترقته المألوفات، وقيدته رعونات نفسه حتى وقف على ما عهد، ولم يتراء إلى معرفة ما غاب عنه، ولا تصور سوى ما أحس، فإنه يقول: " لا فائدة في إتعاب فكرك وإطالة كدك، وتضريب رأي نفسك وتخطيك فعل غيرك، والحال بعد طول العناء أفضى إلى كون الذهب والفلوس

(٤) في و ' مصالح ' ، والرسم المثبت هنا من م فقط (١٤١) .

على مثل ما كانا عليه سواء، من غير تغيير شئ من حالهما، بغير زيادة^(١) فى سعرهما ولا نقصان منه ألبته". فنقول، صدق الله العظيم [حيث] قال: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ سورة الزمر الآية (٩). فإنه لاشك [أذ] فيما ذكرنا فائدتين جليلتين: إحداهما رجوع أحوال العامة إلى مثل ما كانت عليه من قبل هذه المحن فى أمور الأسعار وأحوال المبيعات، والفائدة الثانية بقاء ما بأيدي الناس من الذهب والفلوس - اللذين هما النقد الراجح الآن - على ما هما عليه من غير زيادة ولا نقص، مع رد الأحوال والرفه والرخص إلى ما كانت عليه أولاً قبل هذه المحن.

ولعمري لا يجهل قدر هاتين^(٢) الفائدتين الجليلتين، ويجحد^(٣) حق هاتين النعمتين العظيمتين، من له أقل حظ من تمييز، وأنزر نزر من شعور، إلا من قصد أن يخون^(٤) عهد الله وأمانته فيما استرعاه من أمور عباده، بإظهار الفساد وإهلاك العباد، ﴿والله لا يهدى كيد الخائنين﴾. فأقول وبالله أستعين فهو المعين:

وما فاتنى نصركم بالنساء إذا هو قد فاتنى باليد

أعلم وفقك الله إلى (ص٢٦أ) الإصغاء إلى الحق، وألهمك نصيحة

الخلق، أنه قد تبين بما تقدم أن الحال فى فساد الأمور إنما هو سوء التدبير

(١) فى و " بزيادة " ، والرسم المثبت هنا من م (٤١ ب) .

(٢) فى جميع النسخ ' هذين ' .

(٣) فى و " يجهل " ، والرسم المثبت هنا من م فقط (٤١ ب) .

(٤) فى و " يكون " ، والرسم المثبت هنا من م فقط (٤١ ب) .

لا غلاء الأسعار. فلو وفق الله من أسند إليه أمر عباده حتى رد المعاملات إلى ما كانت عليه قبل من المعاملة بالذهب خاصة ، ورد قيم السلع ، وعوض الأعمال^(١) كلها إلى الدينار - أو ما حدث بعد ذلك من المعاملة بالفضة المضروبة، [ورد قيم الأعمال وأثمان المبيعات إلى الدرهم]، لكان فى ذلك غياث الأمة وصلاح الأمور، وتدارك هذا الفساد المؤذن بالدمار.

وبيان ذلك أن النقد إذا عاد إلى ما كان عليه أولا ، وصار من يأتيه^(٢) مال من خراج أرض أو أجرة عقار، أو معلوم سلطان أو من وقف أو قيمة عمل، فإنما يتناول ذلك ذهبا أو فضة بحسب ما يراه من يلى من أمور العامة، فيصرف ذلك فيما عساه يحتاج إليه من مأكول [ومشروب] أو ملبوس أو غيره. فعلى ما نزل بنا الآن من اختلاف الأحوال، إذا عمل ذلك لا يجد من صار إليه شئ من النقدين على ما تقرر غينا^(٣) ألبته، لأن الأسعار حينئذ إذا نسبت إلى الدرهم أو الدينار لا يكاد يوجد فيها تفاوت عما كنا نعهد قبل هذه المحن ألبته، إلا أشياء معدودة سبب غلائها أحد أمرين : الأول فساد نظر من أسند إليه النظر فى ذلك ، وجهله بسياسة الأمور، وهو الأكثر فى الغالب، والثانى الجائحة^(٤) التى أصابت ذلك الشئ حتى قل، كما

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٤١ ب) .

(٢) فى و " وصار من يأتيه من مال أو خراج أرض ٠٠٠"، والصيغة المثبتة هنا من م (٤١ب) .

(٣) فى و " غيره "، وفى م (٤١ب) " غين".

(٤) فى و " الحاجة "، والرسم المثبت هنا من م (٤٢ أ) .

حصل فى لحوم الأبقار بالموت الذريع الذى نزل بها فى سنة ثمان
وثمانمائة^(١)، وما حصل فى السكر من قلة زراعة قصبه واعتصاره فى سنتى
سبع وثمان [وثمانمائة]، وهذا يسير بالنسبة إلى الأول.

ومع ذلك فلو وجد من أوتى توفيقا وألهم رشدا، لكان الحال غير ما
عليه الآن بخلاف الحال فى هذه المحن، فإن المال الواصل إلى كل أحد من
خراج أو غيره، إنما هو فلوس منسوبة إلى الأبطال كما تقدم، والذهب
والفضة وسائر المبيعات كلها من مأكول وملبوس أو غيره نعم، وخراج
الأرضين إنما ينسب إلى الفلوس، فيقال كل دينار بكذا وكذا درهما من
الفلوس، والفضة كل درهم منها بكذا وكذا درهما، (ص ٢٦ ب) من الفلوس،
والثياب والسلع كلها، والخراج فى الإقليم كله، كل كذا من كذا بكذا وكذا
درهما من الفلوس. وبالضرورة يدري كل نى حس، وإن بلغ فى الجهل
الغاية من الغباوة، أن المال إنما يؤخذ غالبا عن خراج الأراضى، أو أثمان
المبيعات أو قيم الأعمال، أو من وجوه البر والصلات، وأنه لا بد وأن يصرف
فى الأمور الحاجية وسائر الأغراض البشرية، إما على وجه الأقتصاد^(٢)،
أو فى سبيل السرف والتبذير. فإذا صار إلى أحد مبلغ ما من هذه الفلوس،
وأنفقه فى سبيل من سبل أغراضه، فإنه يجد من الغبن ما لا غاية وراءه .

(١) هنا دليل مادى آخر للبرهان على أن هذا الكتاب كتب فى سنة ٨٠٨ هـ .

(٢) فى و " الإفساد " ، والرسم المثبت هنا من م (٤٢ أ) .

وبيان ذلك أن السلطان إذا وصل إلى ديوانه ستون ألف درهم من الفلوس، فإنما يقبض منها متولى ذلك الديوان مائة قنطار من الفلوس، أو ذهباً بحسابه، فإن كان مثلاً إنما وردت إلى ديوان الوزارة، فإن الوزير لما يحتاج إليه من اللحوم السلطانية يشتري بهذه الستين ألف درهم، التي وزنها مائة قنطاراً من الفلوس، وعنهما من الذهب [بحسابه^(١)]، مازنته من اللحم ستة وستون قنطاراً وثلاث قنطار، حساباً عن كل قنطار سبعمائة درهم. وقبل هذه المحن كان يشتري بالستين ألف درهم ألف قنطار وخمسمائة قنطار من اللحم، حساباً عن كل قنطار أربعين درهماً، وفرق عظيم وغبن فاحش ما بين الأول والثاني.

وأعتبر ذلك في سائر الأموال السلطانية ووجوه مصارفها، وتنزل إلى أموال الأمراء، ثم إلى من دونهم من رؤساء الدولة، كالوزراء والقضاة وأعيان الكتاب ومياسير التجار وغيرهم، فإنك تجد مثلاً الواحد من أهل الطبقة الوسطى إذا كان معلومه في الشهر ثلاثمائة درهم، حساباً عن كل يوم عشرة دراهم، فإنه كان قبل هذه المحن إذا أراد النفقة^(٢) على عياله يشتري لهم من هذه العشرة دراهم [الفضة] مثلاً ثلاثة أرطال لحم من لحوم الضأن بدرهمين، وتوابلها مثلاً درهمين، ويقضى غداء ولده وأهله ومن عساه يخدمه بأربعة دراهم. واليوم إنما تصير إليه العشرة فلوساً زنتها عشرون

(١) بياض في و، وكذلك م (٤٢ ب).

(٢) في و 'إلى'، والرسم المثبت من م (٤٢ ب).

أوقية، فإذا أراد أن (ص ٢٧ أ) يشتري ثلاثة أرطال لحم فإنما يأخذها بسبعة وعشرين درهما فلوسا، ويصرف في توابلها [و] ما يصلح شأنها على الحالة الوسطى عشرة دراهم، فلا يتأتى له غداء ولده وعيالاته إلا بسبعة وثلاثين درهما فلوسا، وأنى يستطيع من متحصله عشرة أن ينفق سبعة وثلاثين غداء واحد، سوى ما يحتاج إليه من زيت وماء وأجره مسكن ومؤونة دابة وكسوة وغير ذلك، [مما يطول^(١) سرده، ويكفى فيه تساوى العالم من الحاضرين بمعرفته] . فهذا هو سبب زوال النعم التي كانت بمصر، وتلاشى الأحوال بها، وذهاب الرفة، وظهور الحاجة والمسكنة على الجمهور «ولو شاء ربك ما فعلوه» .

فلو وفق الله تعالى من أسند إليه أمور العباد إلى رد النقود على ما كانت عليه أولا، لكان صاحب هذه العشرة دراهم إذا قبضها فضة رآها على حكم أسعار وقتنا هذا تكفيه وتفضل عنه. فإذا الغداء الذي قلنا إن قيمته الآن سبعة وثلاثون درهما من الفلوس يدفع فيه الآن ستة دراهم وسدس درهم من الفضة المعاملة، حسابا عن كل درهم من الفضة خمسة دراهم من الفلوس، التي ونتها عشرة أواق . فإذا ليس بالناس غلاء، إنما نزل بهم سوء التدبير من الحكام، ليذهب الله عناء الخلق ويبتليهم بالقلّة والدلّة، جزاء بما كسبت أيديهم ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ سورة الروم الآية (٤١) .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من م (٢٤ب)

وهذان المثالان فيهما كفاية لمن أزال الله الطمع^(١) عن قلبه ، وهداه
إلى إغاثة العباد وعمارة البلاد ، ﴿ لله الامر من قبل ومن بعد ﴾ سورة
الروم الآية (٤) .

قال المؤلف رحمة الله تعالى : تيسر لى ترتيب هذه المقالة وتهذيبها
فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ثمان وثمانمئة ، والله يهدى من يشاء ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده .

ووافق الفراغ من تسويدها فى اليوم التاسع عشر من شعبان المكرم
سنة ١١٠١ [هـ] ، على يد أفقر العباد محمد الشهير بالقطرى ،
إمام جامع الوزير وخطيبه ، ببندر جدة المحروس .

(١) فى " الطبع " ، والرسم المثبت هنا من م (٤٣ أ) .

كشف آف أجبده
مقام

- الآمر (الخليفة الفاطمي) : ٢٦ ، ٣٨
- إبراهيم بن وصيف شاه : ١٨ ، ١٩
- ابن أبي زيد (أنظر أبو القاسم)
- ابن الخليلي (أنظر فخر الدين)
- ابن رزيك (أنظر الصالح طلائع)
- أبن رسته : ٢٦
- ابن رفاعه (أنظر عبد الملك)
- ابن سعيد (محمد) : ٧٩
- ابن سيرين : ٦٩
- ابن الشيخي (انظر ناصر الدين)
- ابن عساكر : ٥٨
- ابن عمار (انظر أبو محمد الحسن)
- ابن فاتك (انظر أبو عبد الله) : ٣٢
- ابن ممّاتي : ١٩
- ابن هرجيب بن شهلوف
- ابن وصيف شاه (انظر إبراهيم)
- أبو البركات (الوزير) : ٢٩
- أبو بكر (الخليفة) : ٦٢
- أبو جعفر المنصور (الخليفة العباسي) : ٧٠

- أبو الطاهر المحلي : ٧٨
- أبو عبد الله بن فاتك (المأمون البطائحي، الوزير) : ٢٦ ، ٣٨
- أبو القاسم بن أبي زيد : ٧٨
- أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري (الناصر لدين الله،
الوزير) : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
- أبو محمد الحسن بن عمار : ٢٥
- أبو المسك كافور الإخشيدي : ٢٣ ، ٢٤
- أبو المنجا بشعيا اليهودي : ٤٤
- أبو هريرة : ٧٣
- أتريب بن مصرم : ١٩ ، ٢٠
- أتريب (مدينة قديمة) : ١٩
- أجناد الحلقة : ٨٤ ، ٨٦
- الأحنف بن قيس : ٦٢
- أرباب الجهات : ٤٠
- أرباب المعاش : ٨٣ ، ٨٥
- أرباب المهن : ٨٤ ، ٨٦
- الارتفاع : ٣٣ ، ٣٤
- أردب : ٢٠
- أرفخشذ بن سام : ٢٠ ، ٥٩
- أسامة بن زيد التنوخي : ٢٦

٢٨	: باب البحر :
٤٦ ، ٣٦	: باب زويلة :
٧٩	: الباشـت :
٨١ ، ٤٨	: البراطيل والحمايات :
٤٤ ، ٤٣	: برقـة :
٨٢ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٤٨	: برقوق (السلطان الظاهر) :
٧٢ ، ٦٢	: البصـرة :
٤٩	: بعلبـك :
٧٩ ، ٧٨ ، ٧٦ ، ٧٠	: بغـداد :
٤٩	: البقـاع :
١٧	: بلاد الروم والترك :
١٩	: بنها :
٧٥ ، ٧١ ، ٤٩ ، ٣٤ ، ٢٦	: بيت المال :
٣٢	: البيدرج ، بيادر :
٤٥	: البيكارج ، بواكر :
٩٠	: القرنجيين :
٨٩	: تروجة (بلدة) :
٢٧	: القليـس :
٢٠	: القـواراة :

٢٦	: الجامع الأزهر :
٢٨	: جامع راشدة :
٣٩ ، ٢٩ ، ٢٦ ، ٢٣ ، ٢٢	: الجامع العتيق :
٤٩	: جبة عسال (بالشام) :
٩٧	: جـ_____دة :
٧٤ ، ٦٢	: الجـ_____ريب :
٥٤	: جستنيان الثاني (أفمبراطور) :
٥٧	: الجسرج * جسور :
٧١ ، ٧٠	: جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى :
٧٩	: جنكزخان :
٣٢	: الجهبذ :
٢٤	: جوهر (القائد الفاطمى) :
٤١	: الجيـ_____زة :
٤٦	: حارة الديلم :
٧٥ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٥	: الحاكم بأمر الله (الخليفة الفاطمى) :
٣٩	: الحافظ لدين الله (الخليفة الفاطمى) :
٦٨ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤	: الحجاج بن يوسف الثقفى :
٥٢ ، ٤٥	: الحجاز :
٧٠	: حرّان :
٧١	: الحسن بن سهل :

٢٤	الحسن بن عبد الله بن طنج :
٧١	الحسنى (قصر ببغداد) :
٤٥	حلب :
٤٥	حلى بنى يعقوب :
	الحميات (انظر البراطيل) :
٤٤	الحوائج خاناه :
٦٩	خالد بن عبد الله القسرى :
٦٥ ، ٦٤	خالد بن يزيد بن معاوية :
٧٩	خــــــــــــــــان بالق :
٩٠	الخبز.المكرج :
٧٧	خراسان :
٧٧	الخروبة :
٧١	الخريطة (الخزانة) :
٢٦	الدار الآمرية :
٢٦ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩١	دار الضرب :
٢١ ، ٦٠ ، ٦١	دائق ج ٠ دوائيق :
٦١ ، ٦٠	الدراهم البغلية :
٦٩ ، ٦٨	الدراهم البيض :
٧٦ ، ٢٧ ، ٢٦	الدراهم الجدد :
٦١ ، ٥٤	الدراهم الجوارقية :

- الدراهم الخالدية: ٧٠
- الدراهم الزائدة (انظر الدراهم الزائدة)
- الدراهم الزيوف: ٧٣ ، ٧٨
- الدراهم الستوفة: ٧٣
- الدراهم السوداء (السود): ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦
- الدراهم الطبرية (العتق): ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٧
- الدراهم الغطرفية: ٧١
- الدراهم الغلة: ٧٥
- الدراهم القطع (انظر الدراهم الزائدة)
- الدراهم الكاملة: ٧٦ ، ٨١
- الدراهم الكسرية (الفارسية): ٦٢
- دراهم الكيل: ٦٨
- الدراهم المبهرجة (النيهرجة): ٧٣ ، ٧٨
- الدراهم المحمدية: ٧٠
- الدراهم المدورة: ٦٤
- الدراهم الزائدة: ٢٥ ، ٢٦ ، ٧٥ ، ٧٦
- الدراهم المسودة: ٧٦
- الدراهم المعاملة: ٢٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٧
- الدراهم المصيبة: ٧١
- الدراهم المكروهة: ٦٨

٧٦	الدرهم النقرة:
٧٠	الدرهم الهاشمية:
٧٠ ، ٦٩	الدرهم العبيرية:
٦٧ ، ٦١	الدرهم الوافية:
٧٨ ، ٧٦	الدرهم الورق:
٧٠	الدرهم اليوسفية:
٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢	الدرهم (وزن) :
٦٠ ، ٤٩	دمشق :
٤٠	دمياط:
٧١	دنانير الخريطة:
٥٩	الدنانير القيصرية:
٧٢	الدنانير الهاشمية:
٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ٩٤	الدينار :
٧٨	الدينار المبهرج:
٦٣	دينار معاوية:
٦٠	رأس البغل اليهودي:
٣٠	الرباعي - درهم (ودينار):
٦٠ ، ٦٨ ، ٨٧	الرطل:
٢٤	الرملة (بلدة):
٣٢	الروزنامج :

- الريان بن الوليد: ٢١
- الزَعَمَار: ٥٦
- زقاق القناديل (بالفسطاط): ٣٥
- زياد بن أبيه: ٦٣
- الزيادة: ٢٩
- سعيد بن السَّيْب: ٦٥
- السفاح (أبو العباس، الخليفة العباسي): ٧٠
- السَّكَّة: ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢
- السكة العباسية: ٧٠
- السكة المدورة: ٧٠
- سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي): ٦٩
- سليمان بن عزة (المحتسب): ٢٥
- السمنرة: ٨٨
- سُمير اليهودي: ٦٥ ، ٦٦
- السَّندى بن شاهق: ٧١
- سوق السيوفيين (بالقاهرة): ٤٦
- سيف الدين حسين: ٤٠
- الشام: ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧
- الشاهد ج ١ شهود: ٨٦
- الشدة العظمى: ٣٨

٤٨	فالح بن غابر :
٣٩	الفائز (الخليفة الفاطمي) :
١٩	فرعان بن مسود :
٨١ ، ٤٧	فخر الدين بن الخليلي (الوزير) :
٤٧	فخر الدين أطنبغا المساحي (الأمير) :
٤٧	فرج بن برقوق (السلطان الناصر) :
٣٥ ، ٢٨ ، ٢٣	الفسطاط :
٧١	الفضل بن الربيع :
٨٨ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٥٨ ، ٤٨	الفلسج ، فلوس :
٩٥ ، ٩٤ ، ٩٢ ، ٩٠	
٤٤ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٣ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٤	القاهرة :
٨٩ ، ٨٧ ، ٨٢ ، ٧٦ ، ٥٣ ، ٤٦	
٧٤ ، ٥٨ ، ٢١	القبسط :
٤٥ ، ٤٤	القدس :
٢٤	القرامطة :
٢٦	قرة بن شريك :
٧٣ ، ٦٣	القفيـز :
٢٦	قوص :
٧٩	القيراطج ، قراريط :

- كافور الإخشيدى (أنظر أبو المسك): ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠
- الكامل محمد بن العادل (السلطان): ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠
- الكـرك: ٤٥
- الكـودة: ٨٠
- الكوقـة : ٦٣
- المأمون البطائحي (انظر أبو عبد الله): ٧٢
- المأمون (عبد الله ، الخليفة العباسي): ٦٨
- مالك (الإمام) : ٦٨
- المتجمـون: ٤٠
- متحصل المواريث: ٤٩
- المتوكل (الخليفة العباسي): ٧٢
- متولى السـتر: ٢٧
- المثقال: ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢
- المحتسب: ٢٥
- محمد (رسول الله) صلى الله عليه وسلم: ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٤
- محمد بن عطا (عتاب) الكندي: ٧٠
- محمد بن قلاوون (السلطان الناصر) : ٥٠ ، ٨٨
- محمد بن هارون الرشيد: ٧٢
- محمد القطري: ٩٧
- محمود بن علي الأستادار: ٨٢

المخازن السلطانية: ٣٢ ، ٢٩

الـــــــدّ: ٦٨

المدينة : ٦٥ ، ٦٢

مروان بن محمد (الخليفة الأموي) : ٧٠

المسبحى ، (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد بن أحمد) : ٧٥

المستنصر (الخليفة الفاطمي) : ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٢٩

مسعود الصقلبي : ٣٧

مصر: ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

٥٨ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣

٨٦ ، ٨٧

مصعب بن الزبير: ٦٤

المطرق ج ، مطارق: ٥٠

المعاملين: ٣١

معاوية بن أبي سفيان (الخليفة الأموي) : ٦٣

المعتصم (أبو إسحاق - الخليفة العباسي) : ٧٢

المعز لدين الله الفاطمي (الخليفة) : ٢٤

معقل بن يسار: ٦٢

المكرج (انظر الخبز)

مكة : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤

- الملوطة ج ٩ ملاليط، ملوطات: ٩٠
- المناخ: ٤٢
- المهدى (الخليفة العباسى) : ٦٠
- مياسير التجار: ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٦
- نابلس : ٤٩
- ناصر الدين بن الشيخى: ٨٨
- الناصر محمد بن قلاوون (انظر محمد)
- الفسس : ٦٠
- الفسوأة: ٦٠ ، ٦٢
- لاذو بن سمام: ٢٠
- النليوفر: ٩٠
- الهادى (الخليفة العباسى) : ٧٠
- هارون الرشيد (الخليفة العباسى) : ٧٠ ، ٧١
- هشام بن عبد الملك (الخليفة الأموى) : ٦٩
- الهند: ٥١ ، ٨٠
- الوائق (الخليفة العباسى) : ٧٢
- واسط: ٦٩ ، ٧٠
- الوسمى: ٤٣
- الوليد بن عبد الملك (الخليفة الأموى) : ٦٩
- الوليد بن يزيد: ٧٠

٤٦	الوزيرية :
٢٣	الويبة :
(انظر أبو محمد الحسن)	اليازوري
٦٩	يزيد بن عبد الملك (الخليفة الأموي) :
٦٩	اليمن :
٧٠ ، ٦٩	يوسف بن عمر الثقفي :

ألسماء المراجع

المتداوله فى اللواتى

- ١ - ابن إياس (محمد بن أحمد ١٠٠٠ الحنفى المصرى) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء ، (بولاق ، القاهرة ، ١٣١١هـ) .
- ٢ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ٤ أجزاء .
(ed . Defremery & Sanguintti, Imprimerie Imperial, Paris ,. 1853 - 1858) .
أنظر أيضاً (Gibb) فى المراجع الأوروبية.
- ٣ - ابن ممتى (الأسعد شرف الدين أبى المكارم بن أبى سعيد ١٠٠٠) : قوانين الدواوين (مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ، ١٢٩٩هـ) .
- ٤ - ابن وصيف شاه (إبراهيم) : كتاب أخبار مصر لما قبل الإسلام. كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور، وعجائب الدهور (مخطوط رقم ٢٢٥٥ تاريخ، دار الكتب المصرية) .
- ٥ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين ١٠٠٠ إسفاعةيل) : المختصر فى أخبار البشر (دار الطباعة ، إستانبول، ١٢٨٦هـ).
- ٦ - أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٩) .

- ٧ - البغدادى (عبد اللطيف) : كتاب الإفادة والاعتبار (مطبعة المجلة الجديدة، القاهرة ، سنة ؟) .
- ٨ - حسن (حسن إبراهيم) . الفاطميون فى مصر (وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ١٩٣٢م) .
- ٩ - حسن (زكى محمد) . كنوز الفاطميين (دار الآثار العربية، القاهرة ، ١٩٣٧م) .
- ١٠ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ١٠٠٠) . حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزآن : (مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٣٢١ هـ) .
- ١١ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (De Goeje) .
- ١٢ - عنان (محمد عبد الله) : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . (مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ م) .
- ١٣ - فهرس دار الكتب المصرية .
- ١٤ - القلقشندى (أبو العباس أحمد ١٠٠٠) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزءاً. (دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ م - ١٩١٩ م) .
- ١٥ - الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) . كتاب الولاية والقضاء . (ed R. Guest....)
- ١٦ - الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى) : الأحكام السلطانية (مطبعة المطب ، القاهرة ، ١٢٩٨ هـ) .
- ١٧ - محيط المحيط . المقرئى (تقى الدين أحمد بن على ١٠٠٠) :

- ١٨ - الأوزان والأكيال الشرعية : (ed. Tychsen. Rostock, 1797)
- ١٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيـــــادة،
ج ١، (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر،
القاهرة ، ١٩٣٣ م - ١٩٣٩ م).
- ٢٠ - شذور العقود فى ذكر النقود (ed. Tychsen. Rostock, 1797)،
أنظر أيضاً (De Sacy) فى أسماء المراجع الأوروبية.
- ٢١ - المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان
(بولاق ، القاهرة، ١٢٧٠ هـ) .
- ٢٢ - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) . نهاية الأرب فى
فنون الأدب (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٩ م -) .
- ٢٣ - ياقـــــوت (شهاب الدين أبو عبد الله ٠٠٠ الحموى) :
كتاب معجم البلـــــدان ، ٦ أجزـــــاء .
(ed . Wiistenfeld, Leipzig, 1866 - 1870)

المراجع الأوروبية

Cambridge Mediaeval History, vol 2.

De Bouard (M.) : Sur L'evolution Monétaire de l'Egypte Médiévale. (Rev . Soc. Econ. Polit. Etc. xxx, la Caire, 1939).

Defrémery & Sanguinetti : Ibn Battoutah, Voyages.

أنظر ابن بطوطة في المراجع العربية.

De Sacy (Sylvestre): Traité Des Monnaies Musulmanes, trad. De l'Arabe de Makrizi (Bibliothèque des Arabiant Français.

Tome I. pp. 9 – 66; Le Caire, Imprimère de l'Institut Français. d'Archeologic Orientale, 1905.

Dozy (R.P.A) : Dictionnaire Des Noms Des Vêtements chez

Les Arabes. (Amsterdam, Muller, 1945).

Supplément Aux Dictionnaires Arabes (Brill, Leiden, 1881).

Gibb (H.A.R) : Ibn Battuta. (Butterworth. London 1929).

Encyclopaedia of Islam.

Lane-Poole (Stanley.) : Cairo. (Dent, Londin, 1924).

Le Strange (G) : Palestine Under The Moslems. (Palestine Exploration Fund, London, 1890).

Muir (sir W.) : The Caliphate. Ed Weir. (Edinburgh, Grant, 1924).

Quatremère, (e): Histoire Des Sultans Mamlouks. 2. Vols. (Paris 1837 – 1852).

Tychsen (O.G.) : Al – Makrizi Historia Monetae. Arabical ecodice Escorialensi. (Rostock, 1797).

(أنظر المقریزی فی المراجع العربیة) .

Wiet (g) : Les Biographies du Manhal Safi. (Memoires De L'Institut D'Egypte. T. 19, Le Caire, 1932).

Zetterstéen (K.V.) : Beitrage zur Geschichte der Mamlukensultane.
(Brill, Leden, 1919) .

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع	تر
٣	مقدمة المحقق	١
١١	مقدمة الكتاب	٢
١٣	فصل فى ذكر مقدمة حكومية تشمل على قاعدة كلية	٣
١٦	فصل فى إيراد ما حل بمصر من الغلوات	٤
٥٩	فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن	٥
٨٦	فصل	٦
١٠٤	فصل فى ذكر نبذ من أسعار هذا الزممن	٧
١١٧	كشاف أبجدى عام	٨

٢٠٠٠/٢٧٨١	رقم الإيداع
977-5250-79-X	الترقيم الدولي

دار المصري للطباعة
ت: ٢٨٣٦٥١٦ - الهرم